جعفر لعزيز

الإله الجديد

رواية

المؤلف: جعفر لعزيز
الطبعة الأولى: 2021
لوحة الغلاف: للفنانة حفيظة مسلك
التصفيف والإخراج: محمد عبيد
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الإيداع القانوني: 2021MO3878
ردمك: 978-9920-550-77-2
الناشر: جامعة المبدعين المغاربة
الهاتف والواتساب: 0673224191
البريد الإلكتروني: gh-mhd@hotmail.com
جامعة المبدعين المغاربة: جمعية ثقافية فنية أسست بتاريخ 10 يوليوز 2010
صفحتنا على الفيسبوك: جامعة المبدعين المغاربة
L'Assemblée Créateurs Marocains
العنوان: /دار الشباب سيدي مومن / شارع الحسين السوسي سيدي مومن الدارالبيضاء.
يعبّر المنشور عن رأي صاحبه، ولا يعبر بأي حال من الأحوال عن رأي الجمعية.
الطبع: مطبعة وراقة بلال – فاس / المغرب
الهاتف / الفاكس: 03 86 61 35 05
العنوان: رقم 204 شارع المدينة المنورة حي الأمل / النرجس – فاس

إهداء

إلى الذين أحبهم

إلى القارئ الذي ينتظر أول بذرة من إبداعاتي

إلى البؤساء والضعفاء والطيبين

إلى من يتجرعون مأساة العالم كل يوم

إلى الذين يجدون ذاتهم في روايتي

إلى البسمة التي تنقذني من الضلالة

أهدي هذا العمل المليء بالأحزان

تقديم:

(يا ليتني فيها جذعا)

الناقد المغربي (جعفر لعزيز)، شاب مهووس بالكتب والقراءة، لذلك أُعفي قارئَ كتابه من التعجب لكثرة الشخصيات الكاتبة والمؤلفات الواردة في روايته الذهنية هاته، فلا يظنن ظان أنه يستعرض؛ بقدر ما هي طبيعة المرء البيبليوماني الذي يريد أن يكتب كل شيء عن لوعة و هم الكتاب في أسطر، لذلك فكتابته أشبه بكرونولوجيا تحبل فيها الكتب من تلاقح السرود التي يطغى عليها تشاؤم مرده مثالية أفلاطونية لما يجب أن يكون في ما يكون.

رواية (الإله الجديد) يمكن اعتبارها من الكونديريات المعاصرة، نسق تعتمل فيه روح النقد اللاذع الساخر الحانق الحاقد، مع ثنائية بطولية، والبطلان معا من ورق وواقعيان جدا. ومع ذلك يحيران، فلا هما يحسبان على شخصين ولا هما يحسبان على شخص الراوي نفسه.

تختلط سبل الحكي ومنعرجاته، شككت طويلا أن البطل هو الراوي هو الكاتب فاضمحلت مسافة الأمان بين جدران السرد. وسرعان ما تبعد مفسحة المجال لتطرفٍ تأويلي.. وكل هذا أمر، وجرأة الطرح الذي يلوّح بالرواية إلى الإقصاء من الجوائز بل محاسبة الكاتب رمزيا أمر آخر.

الى هنا انتهي من هذا التقديم الذي هو محاولة نقدية لفهم الكاتب نفسه.

استشراف:

أزعم هاهنا أن الرواية ستثير ضجة، سيتزعزع كل من سيقرأ العمل وينطبق عليه: وسيصرخ: يا لوقاحة ناب هذا النابت !

وسينظر الى العمل كثيرون - منهم أنا - غابطين المؤلفَ على فضل الريادة في الكشف عما يحدث داخل الحرم / المرح الجامعي، ولسان حالهم يقول ما قاله ورقة بن نوفل: يا ليتني فيها جذعا !.

الدكتور أيوب بن حكيم

"ما قيمة ذلك الإله الذي لا يستطيع أن يصنع
كل ما يشاء"

طه حسين

1

موت الإنسانية

أثقلت الحياة كاهل الناس، وأتعبتهم صوارف الزمان وأحداثه، تضنكت المعيشة على أهل هذه الأرض الطيبة، وتلبّست القلوب السواد، وتناسل الخيرون مع أهل الشرّ، تنافت علامات معرفة سرائر وظواهر أهل الصفاء، تأرق جسد الإنسان، وتعبست وجاهته، يحمل في قلبه أكثر مما لا تطيقه حمله الجبال، في هذه الأرض يحمل الإنسان أكثر من طاقته، يحرق حاله البئيسة ويهلكها بحثا عن شيء قد يأتي أو لا يأتي، كانت العبارة التي أرددها على مسامع الكلّ لما يحدث لبؤساء العالم: "لتعلموا يا معشر البؤساء وعبدة الحزن أننا لا نعيش حبا للحياة الملعونة، بل نعيش لنسارع اللحاق بمن يجعلهم ملك الموت في لائحة الميتين" إننا نعيش معيشة ضنكة

ألقت بي الحياة إلى العالم داخل غرفة سوداء، معتمة، بتألمات أمي وحيدة، ما أعانها على قطع حبلها السري أحد قطّ، خرجت من رحمها الحنون، بصرخة مدوية، وسط ظلام حالك، فولادتي وحيدا، إعلان للسوداوية ضد جفاف الحياة الإنساني، سمعت من خالتي رميساء ما عاشته أمي وسط عائلة مليئة بالجوعى والمتزمتين، وعديمي الضمير، الذين يقتاتون من ألم الناس، ويشبعون معدتهم بجعلهم محط أحاديث لا تنتهي إلا بانتهاء الشخص المتحدث عنه، ويسدون عطشهم من دموع البريئين، فمن البشر من تؤلمه سعادتك، وتحزنه وسامتك، ويبغضه فرحك، هكذا كانت حياة أمي، التي زفّ بها إلى جهنم. أجالس أبي فيكتم

عني سيئات حياته وحياة زوجه، لأن الرجال أقدر على حمل ثقل الزمان وصعابه وكتمان مساوئه أكثر من النساء، وحينما أجالس أمي التي شبعت ألما، وأقبلت على الانتحار مرات ومرات، لسوء ما عاشته في ماضيها، فإنها تتقيأ عليّ مكائد العائلة ومفاجعها؛ لأن قلوب النساء أضعف على حمل آلام الحب والحقد والكره من الرجال، هن أصدق في كل شيء، من هنا تكونت الأحزان، ومن سجن مسقط الرأس بدأت.

لم أصدق أقاصيص أمي، فأثناء ولادتي، دائما ما تحضرني فكرة الوحدة، ولدت وحيدا، وسأنام في قبري وحيدا، وسأحاسب وحيدا، أعانق وحدتي، وأؤنسها، أحدث أمي أن تحدثني عن طفولتي، لأعلم عنها دقائق الأمور، رغم ذلك فلقد تناسى صاحبنا هاته الأحزان، لأنني مقبل على أحزان أخرى، التي أشمها حتى من رائحة الطعام، حينما تطالني أعين جدتي وتتصيدني كلما أردت أن ألقي اللقمة في فمي، أبادل ذلك بالبسمة فقط. أيّ وعي كنت أمتاز به وأنا صغير؟ أحدث نفسي فأقول: نديم لا يعلم أنه داخل منبت ذاقت فيه أمي جرعات برودة الدم. الحقارة تعم كل مكان، هي في دواخل الناس، هي في الشارع، هي في جانبك دائما. وأنا صريح مع نفسي، حتى في صغائر الأمور، وأحب أن أصارح القارئ، ليصارح ذاته، لتعلم أنّ الدناسة أمامك فلتحذرها، وأنّ الحقراء سيعترضون طريقك فتجاهلهم، وأنّ الأغبياء سيحشرون أنوفهم في حياتك، فلا تكثرت لثرثرتهم، وأنّ الجهل والجهلاء سيتلونون للإطاحة بك، فلا تبتئس بما يفعلون، وأنّ البؤس سيأتيك من كل جانب فعانقه وكن من البائسين. نرغب في عيش حياة آمنة، ولكنّ الرغبة تتحطم كلما خرجتَ إلى الشارع، فأول ما ستراه طرف العين، عاطلون يبحثون عن العمل، متشردون يطلبون مالا، مرضى ملقون خارج المستشفى، أعين مليئة بالدموع، وجوه

حذرة تكتم بكاءها، شباب متسكعون وحيرى، يعضون أصابعهم، ويلتفتون يمنة ويسرة، بائعون هلكى باعتداءات الفاسدين، حزينون لهذا السبب، لأنّ الرنة الموسيقية التي نسمع صداها في كل مكان، هي التأفف، وأحسب القارئ على علم يقين بهذه الرنة، اتي تحفر قلبه وتجعله يلمس صدره ليسمعها. حزينون ليس لأننا عشنا طفولة أليمة، بل لأننا في موطن تعني فيه السعادة تركه والرحيل عنه، طفل في سن صغيرة، يفقد الثقة في مسقط رأسه، فهو أمر مؤلم وفظيعٌ.

الحياة النقية اختلطت مجاري أمواهها بمجارٍ عكرة، نتجرع في كل يوم نعيشه جرعات من الصبر، لننال المقدرة لمواجهة متاعب أحقاب الزمان، مولدي، منبت هشّ، لا يليق أن يعيش فيه النّاس، إنه موطن أهل الجنوب، بلد يجمع المحاسن والأضداد، والمفاجع والأفراح، والخبائث والمطايب، ومنشأ أحكمته بشاعة عائلتي الممتدة، التي لم تضف إليّ إلا اسمها العائلي، نديم حسرة، كان الملاذ الذي يجعلني أستمر في معانقة مزحة الحياة، هو مجمع أسرتي الضاحكة الفقيرة الماتعة، هي الأول والأخير أن أنقذهم من البأساء، وأن أفتحهم على نعيم الدنيا ومتاعها، بعدما كانوا في جحيم من أهلكونا، وأتعبونا، وأجحفوا طفولة اخوتي، العجيب غير المصدق في هذا العالم، أنّ هناك نوعا من البشر، همهم الأسمى الهتك، يهتكون عرض الناس، ويتلذذون بذلك، يهتكون أعراضهم، ويفخرون ويحدثون الآخرين بذلك، يهتكون أقاربهم ويلاسنونهم في الظاهر بحلو الكلام، وفي الخفاء بخبثه، لقد كثر الحقراء، وتتكاثر نسائلهم، وتبددت خيوط السلام، وتهشش بيت الإنسانية، وصار بيتها أهون من بيت العنكبوت، ولم يعد للطيبين أثر، تبلعهم الأرض، ترفع أرواحهم إلى السماء، هم محميون من الخبائث، فسرعان ما تحضنهم الأرض تحتها،

خشية ألا تتسخ روحهم المضيئة بمدنسات الخبيثين، إنهم من الناجين من فسق عالمهم بأعجوبة.

ودائما ما أحدّث، شيخي الزاهد العابد المتنور، وأتحاور معه، لأتخلص من زوائد المنافقين، وكسائر الحياة، وأتعابها، كنت أتردد إليه دائما بعد صلاة المغرب، إنه وقت بداية الصفاء وانتهاء أعاجيج البشر وضجيجهم، وقت ينسم فيه المنعزلون والهاربون والمتفردون بنسائم المساء وعليله، وكلما زرت الشيخ صالح أصلح الله حاله، يقول لي: أهلا بذي الطباع الحسنة، والوجه المنير، مؤنسي في الوحدة، افتح الباب وادخل، فتح الله عليك بني، أدخل إلى بيت شيخ بوجه وأخرج بوجه آخر، والبيت آمن بالنسبة إليّ، مأوى الطمأنينة والهناء، والضحك والملاذ، بيت الشيخ بعيد عن سكنى القبيلة، وبعيد من ضجر النّاس، وسألته مرة عن أسرار بيته وسرّ بنائه، فقال الشيخ: لقد دلتني الحياة يا نديم أنّ أساس عيشها تجاوز أعشاش الناس، فقد فقدت والداي بسبب الحسد، اضطرت من خلاله العمة بوضع أكل مسحور يسمى بالتوكال، لتخريب محبة أبي وأمي، وعلاقتهما الزوجية، فلم يتم تخريب العلاقة فقط، بل فقدا عقلهما، وذهبا إلى الغابة فانتحرا معا، وكنت آنداك في سن الثالثة عشر، أعلمت بكيد ما حصل من المقربين، فابتعدت لأكون غريبا، وقررت الرحيل عن العائلة، والابتعاد عن السواد، الذي سوّد حياتي، فبنيت هذا البيت، فأنشد الشيخ قول الشاعر العربي:

بَنَيْتَ بَيْتاً سَمَا للفَخْرِ مَصْعَدُهُ... واحْتَلَّ في ذِرْوَةِ العَلْيَا مُشَيّدُه
قد عَانَقَ الأُفْقَ حتَّى خِلْتَهُ كَلِفاً... قد طالَ مِن وَجْدِه فيه تَلَدُّدُهُ
للنُّورِ في دَوْرِه لِعْبٌ ومُؤْتَلَقٌ... يَعلو ويَنْحِطُّ مُسْتَنٍّ تَوَقُّدُهُ

كأَنّه صارمٌ في كَفِّ مُدَّرِعٍ... يَسُلُّه في الدُّجَى طَوْراً ويَغْمِدُهُ
أَسَاسُه مَجْدُه والجُودُ حَائِطُه... وأَرْضُه فَضْلُه والسَّقْفُ سُؤْدَدُهُ
بَيْتَانِ في الأَرْضِ بَيْتُ الله نَعْرِفُهُ ذِكْراً وذا البَيْتُ نَغْشَاه ونَقْصِدُهُ

الشيخ صالح، صاحبته، طوال سنوات دراستي، من السن الإعدادية حتى حصولي على الباكالوريا، وفي صحبته هاته، تذوقت نسمة الوحدة، وأدركت معها قيمة نفسي، فاستوت لي خرائط الحياة، لأن قلب شيخي، الذي أشرف على سن التسعين مليء بالقبسات الربانية، كبار السنّ مليئون بالحكمة، والكلام السديد؛ لأنهم تشربوا الحياة وعلموا حلوها ومرها، وجيدها وسقيمها، وسليمها وسيئها، كلّما عجزت عن فهم عويصة، أو اشتقت إلى فهم مشكل، أوي إلى شيخي، الذي يخرج من فيه كلمات ترفع قلبك إلى درجة الإيمان، وتخرج عقلك من حيرته الدائمة، قلت إنني، أدخل إليه بوجه، وأخرج عنده بوجه آخر، ابحثوا في حياتكم عن رجال كهلى، فإنهم يلامسون قلوب الشباب، ويفهمون سرائرنا، لقد مرت الحياة أمام أعينهم، ولا يعجزه أن يريك ما يؤلمك، فمن أول نظرة رأيت فيها الشيخ، أدرك أنني ميت بالانتظار، وأبحث عن أمل يأتي أو لا يأتي، وجدني قرب بيته، متكئا تحت ظل شجرته، أتأمل حالي، وحال أسرتي، فلامس رأسي قائلا، وصوته خافت لا يكاد يسمع، لولا قربه مني، ستفرج يا صغيري، وستنال ما تنتظره، أبشر باعتزال ما يضرك وستصل، خفق قلبي قليلا لما سمعت الصوت، والتفتت إلى ورائي، فوجدته يتكئ على عكازه، وجهه مليء بتضاريس الانتكاسات، والأحزان، والهموم والصعاب، ووقفت فقبلت يده ورأسه؛ لأنه من عاداتنا تقبيل يد ورأس الكبار، فجلست معه، فقدم لي

لبن معزته الواقفة بجانب كلبه، والتي تصاحبه في غدوه ورواحه، فتحدث إليّ بكلام حكيم، منحني طاقة العودة إلى مواجهة صعاب الحياة.

نبحث عن إنسان، يعترف بالإنسانية، مثل شيخي، ففي موت الإنسانية، يموت الإنسان، ولا يموت الذي يحيها ويدخل في الملعونين من يميتها، لقد أمسى الإنسان بلا قلب وبلا ضمير، تلاشت إنسانيته ولم يعد يفكر إلا في الهلاك، تعامت بصيرته، ولاذت به الأيام إلى الفناء، يخامرني الشك دائما، وأتساءل هل يمكن للعالم أن يعيش يوما بلا حروب ومأساة؟ هل يمكن للبشرية أن تحقق السعادة؟ هل يغيب الظلم والاستبداد؟ لا أعلم سر هذه الخصومات، والهدف من صناعة الأسلحة، هل مات فينا الإله؟ تقاد البشرية أمام آلهة أخرى تماما، تعبدها أكثر مما تعبد الله الواحد. نظن أن الحياة بعد فاجعة الولادة معاناة لا مفر منها، أرى أن لحظة الصراخ أثناء الولادة صراخ ضد العالم اليائس، وبكاء على تألماته الفظيعة، إن الراحلين من هذه الحياة لم يخسروا شيئا بالأساس، فهم محظوظون كثيرا، وسعيدون جدا، فقد تخلصوا من عبء فوضى الحياة.

في لحظة حميمة وسعيدة يجتمع فيها الزوجان فينجبان من خلالها مأساة إنسانية، الأشياء التي تبدأ بطرفة دائما تنتهي بمأساة، لا أدري سبب فخر الأمهات وهن يحملن في بطونهن كارثة مستقبلية، فلو كنا نقيس لحظات الألم التي نمر منها أثناء الولادة لما تمنينا أن نولد، تضببت الحياة بالنفاق والكذب، والحقد والبغض، نعتقد أننا نشق طريقا آخر نحو الهلاك.

لن أحمل نفسي على تغيير العالم، والتشغب من أجل إصلاحه، لا ضرورة من الثرثرة للنداء بالإصلاح، وإنشاد حياة سعيدة، يكفي أن يزيد

الإنسان خرابا وفسادا في الأرض، ليغضب عليه الله تعالى، وينهي مكر ومأساة هذه الحياة، الله رحيم بنا كثيرا، يا للحقارة التي يمتاز بها الإنسان، لا يأخذه الحياء للاستحياء من خالقه، ولو كان الله يؤاخذنا بظلمنا ما ترك على الأرض من دابة، وقال في كتابه العزيز: " وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ".

سئمنا من فظاظة الناس، وضجرنا من كوارث الإنسانية، نتحسر دائما، كنا نناشد الأمل كل يوم، لمواكبة حياتنا بما فيها، ولكن نصاب بخيبة أمل من أملنا الكاذب، الحقيقة العاهرة أن العيش في هذا العالم اغتصاب دائم لا منقطع، أسقطنا في فحشاء لا ذنوب فيها، ولا عيوب لها، سنقر حتما لا محالة أَنْ لا مجال لزراعة التفاؤل في وجوه الآخرين، إننا بهذا الفعل نستدرجهم إلى الانفتاح على الشقاء والألم.

أعود كثيرا إلى مذكرات دفتري القديم، وإلى كتب أبي، فأكتب فيه ما لا أستطيع أن أبوح به للجميع، حتى للشيخ صالح، وأصلا لا أملك إلا شيخي، والقلة القليلة من الأصدقاء، الذين أشاهدهم بكثرة في المدرسة فقط، أما في القبيلة فقد تعودت على البقاء في المنزل، أو الذهاب إلى بيت الشيخ صالح، أكتب عن الأحزان، عن الأوجاع، عن القسوة التي رأيتها في عيون أمي، وأقرأ عن الآلام، ليس في الكتب؛ لأن أبي يملك كتب الفقه والحديث والعلوم الشرعية فقط، بل أقرأها في عيون الناس، ومن وجوههم المتألمة، الشؤم ينخرهم، الحزن يفجعهم، وأحدّث دفتري الكبير عن المآسي، وعن أخبار البؤساء، ومجازر الحمقى والمغفلين، ومن شغلهم تتبع المساوئ وخلقها، أعود إلى دفتري أو شيخي، فدائما ما ينبغي أن تتوفر

على شخص تؤوب إليه في كل انكساراتك، حينما تؤلمك مآسي الدنيا، وتفجعك أحداث الزمان، ومن كثرة ترددي إلى بيت الشيخ، أمر على بيت الفقيه، الإمام جوّاد علي، أحد كاتبي مفاجع النّاس للامتناهية، أمر أمام بيته أسمع الصراخات والعويلات، وسألت شيخي ذات مساء عن ذلك، قال لي يا بني: لقد أخبرتك عن سبب فاجعتي، السحر والشعوذة ووضع التوكال ورش الماء، أو الماء المرشوش، باستغلال المناسبات والأعراس، ففي العرس يذهب العريسان ضحية الحسد والحقد، فيسحران دون أن يعلما ذلك، إما برش منزلهما، أو وضع شيء يقدمه المشعوذ للخبيثين لوضعه في الطعام المقدم لهما، الغريب يا صغيري نديم، أنّ ذلك من الأقارب المتزمتين، أما الغرباء فلا يعرفونك وسعيهم للمضرة أمر بعيد جدا، الأقارب أقرب شرا إليك، وأقدرهم على فعله، وأبعدهم نفعا لك، فلا تغرنك البسمات المتعالية، والدعوات المترددة منهم، فلو اطلعت على ما في قلوبهم يا نديم لسبقت إلى قطع رؤوسهم بالسيوف، واستغربت من قول الشيخ، فقلت: أعلم الآن سرّ إخفاء الله تعالى ما في قلوب النّاس، فهو يعلم سرّنا وسرّ ما يكتمون. الحياة سهلة، ويأتي إليك من يصعبها عليك، بسيطة فتلتقي بالأوغاد فيبخسونها في وجهك، هي معبر فيأتي من يظنون أنهم مقيمون فيها ليكدرونها عليك، ضوضاء وضجيج مستمر، وسبيل النجاة واحد.

أتمّ الشيخ صالح كلامه، فقال: أكثر الأشياء التي يتردد إليها المتوجعون في هذا العالم، بيوت الفقهاء بسبب الصرع والعين والحسد، والمستشفيات بسبب المرض والحسد والحقد أيضا، الإنسان ضعيف لكن خبثه أقوى وأشد قساوة، الإنسان لطيف، لكنّ مكره أظهر وأعتى، فبئس ما يكتمه من خبث، وما يصنعه من الخبائث، الأمر فظيع حقا، فسقم

الحياة وبيء، الناس فيها وبيئون، مطالبها موبوءة، نتوق فيها شيئا واحدا، هو الخلاص، ونبتغي فيها رحمة وشفقة إلهية. الاستمرار في العيش دون السعي وراء نيل الرحمة والمغفرة، عيش متورم وخبيث، ينبغي أن نتأمل نوافذ الإله، كما يردد ذلك كونديرا، الله ينبغي أن يسكن في قلوبنا، لكي نقدر على مواجهة الصخب الذي يفجعنا، ويمنحنا طريقا للسلام، دائما ما أقول للرفاق أيام الإجازة إن الحياة لا تستحق كل هذا العناء، حملها على محمل الجد غباء بعينه، بقينا مأسورين مقيدين في أسوار هذا البلد الحبيب. إن أفضل الأيام التي أنعمت فيها سلاما هي التي قضيتها في بطن أمي، وما بعد ذلك فمليء بالانتكاسات والفجائع، فبعد ولادتي أدركت أن المكان مرعب، مليء بالضلالة. الصراخ الذي نصرخه وقت الولادة هو في عمقه رفض للمغامرة الخبيثة المزيفة في هذه الدنيا الزائلة، التشاؤم معبدنا الوحيد للبقاء على قيد الحياة، ما معنى أن تكرس حياتك في مدارسة الكتب، والاجتهاد من أجل تحصيل المعرفة، لتجد نفسك بعد التخرج وسط غابة سوداء مظلمة، لا تعرف إلى أي مكان ستأخذك؟ مرت ثلاث سنوات من الكد والتحصيل، ماذا بعد كل هذا؟ الذهاب للعمل في البناء، هذا هو العهر برأسه، الوظائف التي تعلن عنها الدولة قليلة جدا، والولوج إليها يريد منك أن تكون آل شيخ، نحمل خيبات أمل من كل دقيقة تمر علينا في هذه البلاد، مطامحنا الصغيرة حملت أجنحتها وفرت إلى مكان آخر، أحلامنا توقفت لتأخذ نفسا آخر، وأظنها لن تعود مرة أخرى، لقد يَئِستْ مما رأته وصادفته، الأحلام في وطني لا تعمر طويلا، لا تستقر على حال، وجودها في هذا المكان خطأ وجودي بالأساس، نبني أحلاما حقيقية في وطن مزيف، قد أكون خاطئا، أو فاشلا، ومتشائما، فتعتبرني مسيئا بهذا الكلام، ولا زيف توهم به نفسك، لتقول إن كلامي نابع عن فشل أو

عدم رغبة في البحث عن حياة سعيدة، لتطعم اعتراضك بأن الدولة وفرت مناصب للشغل وعملت على تحسين الاقتصاد، واهتمت بالشباب العاطلين، وأهلتهم تأهيلا جيدا، ولكن اعلم أنك تهذي وتتوهم، فكل هذه الأشياء التي أسردتها وُفِّرَت لذوي البطون الضخمة، لهؤلاء الماقتين، الذين يقدسون الإله الجديد، يعبدون المال، ومن ورائه يقومون بأفظع الجرائم، يخرجون أمام الإعلام بأوجه ضباعية، يتلونون في كلامهم، ويستميلون شعبا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، لا أدري كيف أسقطنا في أحضان دولة مرتعشة، لا قرارة لها ولا قرار. الفاسدون في وطننا هم الشرفاء والأولياء، هم الإنسانيون والمسالمون، يتركونك في سلام آمن، لا يجابهونك، رأس مالهم الكلام، وإن الكلام عن كلامهم لصعب، يدخل في أحشائنا ويفتتها، عباراتهم تضاجع أحلامنا لتلد وهما وسرابا، وعودهم نكحت أيامنا بالانتظار والسأم.

المسؤولون يقتعدون للناس مقاعد للخبث والسفالة، ويقعدون في صراطهم المستقيم، لربما إن شيطانهم له تعاليم أخرى، لم يكن يرتكبها شيطاننا الذي استقل من مهمته الإغوائية، تاركا الأمر للمسؤولين والسياسيين وأهل الشأن في البلاد، غادر الشيطان قائلا: "إني أخاف رب العالمين". ضباع حقيرة تظل في مسكنها أياما لا محصورة، فتخرج إلى الصيد أيام الانتخابات، لتأكل رؤوس الشعب بالكلام، وتشييد وعود كاذبة لا تسمن ولا تغني من جوع، لم نعد قادرين على الصبر، أين زمان الطلبة الإخوان والرفاق النجباء؟ المدافعون عن حقوق الضعفاء، لقد كانوا طلبة ومفكرين في الوقت نفسه، يناضلون ويدرسون، ويكدون ويجتهدون، عكس ما نجده اليوم، طلبة مجانين لا تكاد تعرفهم أطلبة هم أم تلاميذ؟ عالة على الدراسات العليا، يشتكون من كثرة الدروس، ومن

شدة الأيام ومحنتها، ويتباكون كثيرا، همهم المتعة لا غير، قلّما تجد طالبا يشعرك باللذة.

كانت الجامعة في وقتها مصدر رعب على الدولة، ومصدر تقدمها، كانت تنتج بؤسا يوحي بالسعادة، والآن تنتج سعادة، بعدها شقاء دائم، وعناء طائل، كان الطالب في السنة الأولى قديما أكثر تمكنا من باحث في سلك الدكتوراه اليوم، أما الجامعة بين الأمس واليوم، فخراب آخر، ومأساة أخرى، فهي ساحة لضم الفاشلين، ولتكديس الناس وتجمعهم، وجعلهم يتلاهون لسنوات؛ لا تكوين فيها ولا هم يحزنون، أي أشياء استجد بها الزمان علينا اليوم.

آهات الزمان كثيرة، لقد كان الرفاق قديما لا يفارقون الكتاب، ولا يجعلون القراءة مجرد متعة، كان الطالب إذا دخل إلى الحلقة أستاذا، يغنيك بالفكر الماركسي والستاليني واللينيني والإخواني، وأما الآن فقد أورثنا طلبة ينتمون إلى فصائل حماسا لا فكرا، يطالبون بحقوقهم، وتجدهم غير قادرين على إتمام كتاب في شهر، أيّ نضال هذا؟ حقّ علينا القول أننا ولدنا في زمن الفجعة والشدة، مشربنا مليء بمنومات اليأس، لا دولة لها شأن، ولا جامعة ذات قدر، لربما نحن بهائم، نموت موتة إنسانية.

بالي يشغلني بالثورة على الوضع، والمطالبة بالإصلاح، ولكن دفاعنا عن المطالب في بلادنا جريمة يعاقب عليها القانون الفاسد، المغامرة في القيام بنضال فردي، نتيجته حتمية، هي الاتهام بالفتنة، والفتنة أشد من القتل. كان العم إدريس الإسكافي، الذي تعرفت عليه بمدينة العهد الجميلة، سنوات الإجازة يخبرني بذلك، رحلت عن الشيخ صالح؛ لأن

ظروف إتمام الدراسة بالعهد، فرضت علي ذلك، قلت من كثرة ترددي عند العم إدريس لإصلاح حذائي الحديدي، يقول: إن أمثالك نتيجتهم محسومة، دعك من الحديث عن النظام، وإلا ستقمع ويلقون بك في مناطق لا يعرفها إلا الله تعالى، فقد كنت مثلك، أناضل وأثور وأدافع عن حقوق المقموعين، وفي الأخير حصدت (الدس) كما يقول المغاربة، مطالبتك بحقك في هذا المكان كفر، ودفاعك عن الآخرين، غباء وجريمة، عش يا بني حياتك، ودع عنك الدولة، اهتم بدراستك ومستقبلك جيدا، لتبحث لك عن عمل قار، بمدخول يكافي أسرتك، فنحن الفقراء لا نملك سوى رفع الدعاء إلى الله تعالى، اسمع كلامي جيدا، وإلا ستكون نتيجتك ضياع شبابك وعمرك في السجن، وإذا ضيعت شبابك فلا طعم للحياة وقتئذ.

إن الدولة تملك ما يخيط لك فمك ويجعلك تقعد على قنينة الثرثارين والمعارضين، فتضاعف ألمك ثلاثة أضعاف ألم الحمل عند النساء، وقال بيأس محزن: وستلد ولدا اسمه الصمت والانكماش. تأملت كلام العم إدريس جيدا، فوجدته حكيما، كيف لا؟ والعم قد قضى جل حياته في السجن، بسبب جرأة غرضها الدفاع عن حق المغفلين الصامتين، لا أدري متى سيستيقظون من سباتهم العميق، وفكرت بأن الحياة غير عادلة، لا تنصف الأبرياء، والمدافعين عن حقوقهم، النوم في بلدي جنة مقدسة، يستكن إليها جميع الناس، بدأت أستيقن سبب إنشاد معروف الرصافي لقصيدته التي يقول فيها:

يا قوم لا تتكّلموا إن الكلام محرَّم

ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلاّ النُوَّم

وتأخّروا عن كل ما يَقضي بأن تتقدّموا
ودَعُوا التفهُّم جانباً فالخير أن لا تَفهموا
وتَثّبتُّوا في جهلكم فالشرّ أن تتعلَموا
أما السياسة فاتركوا أبداً وإلاّ تنموا
إن السياسة سرّها لو تعلمون مُطلسَم

أحق الرصافي الحق في قوله، لم يعد الكلام يؤثر في هؤلاء الأشقياء والهالكين، الذين لا يعرفون معنى الدفاع عن حقوقهم، إن تكلمت سيعتبرونك خائنا، وغير محب للوطن، لو كنا نتحكم في قدرنا لما اخترنا أن نولد مع مثل هؤلاء، عقلية ميتة، وضمير ميت، وحياة قاتمة، ما زالوا يظنون أن الحياة هي الأكل والشرب، هكذا كان يقول جدي من أمي، الخبز والشاي وشرب الحريرة يكفينا، لا نريد شيئا آخر، ويشعل خاطري بعبارة إن أهل الثراء يعيشون في رفاهية كاذبة، ولا يعرفون معنى السعادة، أما نحن يا بني، فإننا حامدون وشاكرون الله على فضله، فقد رزقنا القناعة والرضا، وجعل الابتسامة دائمة على وجوهنا. رحمك الله يا جدي، على كلامك المضلل، ولست أنت فحسب من يمتلك هذه الأفكار، ويرددها، بل إن أسلافنا وأجددنا أُبلسوا بهذه العبارات، وأخرسوا بها، إنها ضلالة قديمة يريدون أن نغرق فيها، أليس لنا الحق في الثراء، والاستمتاع بالحياة؟ ألا يحق لنا أن نحدد أحلامنا كما نريد؟ السأم ينخرنا كل يوم، وأسرتي تنتظرني لأكون رجلا وأعوضهم، وأجعلهم يخرجون من ضيق الحياة.

لست أنا الوحيد المتأزم العابس اليائس، فأغلب الأبناء في قريتي يعيشون هذه الظروف، أسرنا تعيش في ضيق، ولدنا في منطقة ضيقة، لا

تتسع لكي تحضننا، تربيك وترمي بك إلى المدينة العاهرة، إما أن تكمل دراستك الجامعية، أو أن تذهب للبحث عن عمل، تجمع فيه بعض المال، لتتعاون مع أسرتك، وإذا لم ييسر الله لك في عمل جيد، أو وظيفة ذات دخل قار، فإن شبابك يضيع في المدينة غريبا ومستغربا للبحث عن رزقك، هذا هو حال أهل البوادي، والحال عندنا في زاكورة، البلد السعيد الشقي.

2

ما بعد الإجازة

إكمال المرحلة الجامعية الأولى، ليس نهاية مسار العذاب، بل انتقال إلى عذاب آخر، والحصول على الإجازة فرحة لا تبدأ حتى تدوم، هل سنفارق الجامعة أم سنتسمر فيها؟ هذا هو السؤال الذي يخدش عقول الطلبة، يعقدون آمالا كبيرة للحصول على وظيفة، أو التسجيل في ماستر من الماسترات، عاينت في سنوات الإجازة مشاهد بئيسة، عن هؤلاء الطلبة الذين يلجون مسالك الماستر بتقديس الأساتذة، قداسة عمياء للظفر بمقعد يزيدهم جهلا وبأسا على بأس، الطلبة المتملقون، يلتصقون في مؤخرة الأساتذة للحصول على نقطة جيدة، أما نحن البسطاء والمقاتلين، فلا نعرف شيئا كهذا، نقاتل دون السعاية وراء النقاط، فهي التي تنادينا وتأتي عندنا، نقاتل من أجل المعرفة، أتذكر صديقي جمال الملقب بالزهواني، لولعه الشديد بالطالبات، كان يسحرهن بكلامه العذب، وأناقته الجذابة، يلاطفهن ليعوض نقص الجفاف العاطفي الذي عاشه في زاكورة، كان يقول لي: إن الطلبة الملقين، يلتصقون في مؤخرة الأساتذة، أما الطالبات فيلتصقن على مفتاحهم للحصول على النقاط. لربما فهمت عزيزي القارئ معنى المفتاح المقصود، وماذا يفتح، لا ترغمني على شرح الواضحات، والأمر مفضوح وحتى وإن لم يكن واضحا، أتأسف كثيرا، لتلك الطالبات اللواتي يستغلن مقوماتهن للحصول على نقطة لا تغني ولا تسمن من جوع، في كل جامعة تعرفُ فيها الأستاذ المحترم الذي يتصيد الطالبات الجميلات، ويجعلهن محط عينيه الخبيثتين، ليدخلها في لعبة

قصره المسحور، تجده وسط القاعة يرمي بإشارات لا يفهمها إلا الإناث، لغة المتعة والنشوة، وحتى إذا ما أُكْتُشِفَ أمر الأستاذ، فإنه من شدة الاحتراف يخرج نفسه من الورطة، ويرمي باللوم على فريسته.

اللعنة على هؤلاء الخبيثين، لا ألوم الطالبات، بقدر ما ألومهم، أقصد الأساتذة، يستغلون أحلامهن في لا شيء، ليذهبوا كلهم إلى الشقاء، يوظفون معرفتهم المزيفة وأستاذيتهم في ما لا يرضي الله، ويل لهم بما كسبت مفاتيحهم، كم من باب فُتح بسببهم، ولن يغلق مرة أخرى، يفتحون الأبواب في كل مكان، ويتركونها مشرعة، ويكملها الطلبة الخبيثون، الذين يأتون إلى الكلية لعقد الصلح مع مشاعرهم، وارضاء أحاسيسهم وتفريغ كبتهم. تبا لصديقي جمال الزهواني وأمثاله من الطلبة، وتبا للطالبات، اللواتي لا يضعن أمام أعينهن صورة الأب الذي لا يرجع إلا في وقت متأخر من العمل، مفتخرا أمام الناس، بأن ابنته ستصبح أستاذة، وستخرجه من المحنة، وهو لا يدري المسكين، أن زهرة ابنته قد فتحت، وتتفتح كل ليل، وبكل شوق وراحة، تشبه الوردة التي تتفتح كل صباح، وفي الأخير يقتطفها شخص معين، ويرميها وسط الطريق، كذلكن أنتن أيتها الطالبات الساعيات إلى النقاط، المدعيات للبراءة والتستر، فلا حياء فيكن، تطلبن من الرجال أن يأتوا المنازل من أبوابها، وتخفن بأن أبوابكن مفتوحة، نتصيد فيها نحن الأبرياء، نفسد مفتاحنا في باب لم يغلق أصلا حتى نفتحه، سامحكن الله، إذا كنتن تطلبن إتيان الأبواب، وهي مفتوحة، فيفضل الشباب البقاء في سجن العزوبية على عدم الزواج بكن.

وإن كان الأساتذة الفاسدون يفعلون مثل هذه الأفعال، فأفضل أن أكون جاهلا على أن أكون مثلهم، تعاهدت مع نفسي وصبرتها أن تتقوى

على مواجهة جميع الصعاب، صرخة الولادة ليست فاجعة فقط، بل هي تحدٍ لهذه المأساة التي نسبح فيها، صرخت في وجه الدنيا اللعينة، بكيت بحرقة شديدة، على عمري الضائع بين حقارة هذا العالم.

أيامي لم أتمتع بها كثيرا، لم أذق طعم التجول مع الجميلات الفاتنات، لم أجلس في الحديقة لأبحث عن قمرية ليلية، لم أسع لإرضاء شهوتي مع بنات الليل، تمنعت عن الرفقة في الجامعة، كنت مع العم إدريس، وصديقي جمال فقط، الصادق الوثوق، الجميل، الرجل الذي تعول عليه، رغم زهوانيته التي أكرهها، إلا أنه ينصحني بأن أبتعد عن تلك الرذائل، عشرتنا كانت جميلة، ثلاث سنوات، قضيتها مع الكتب رفضا للعالم الذي يرفض أن يتجه اتجاه مطامحنا، وقضاها جمال مع الأنيسات، إلا أنه في الأخير حصل على فرصة للعمر، هاجر فيها خارج البلاد، عن طريق صديقة ليلية، تعرف عليها من طرف صديقة له، رشيقة ومن مشتقات القمر في الليل، وسليلة الشمس بالنهار، أصدقت جمال الوعد، بأن تمتعه بالمال، شريطة أن يمتعها من باب آخر، صديقي غير جلباب بلدنا الأخلاقي، بلباس الجلباب المالي، هو الآن مسافر لا يفكر في هموم التحصيل المعرفي، ولا تهمه لحظة إعلان نقاط الامتحانات بالجامعة، وجد ما يرغب فيه الناس ويتقاتلون من أجله، اقرأ أنت وحدك، أما الناس فيريدون المال، ويعبدون المال.

حقا هذه الحياة ليست عادلة، لم أحسد جمال على رزقه هذا، ولكن بدا لي أن السهر والجهد الذي عشته، ضُرب عرض الحائط، آه آه يا نديم، رمت بك لياليك إلى متاهة نهارية لا تقبل شعر المتنبي وأبي نواس، والبحتري، ولا نحو سيبويه والكسائي والمكودي، الواقع لا يعرف شيئا

اسمه المعلقات ولا يعترف بشيء اسمه الكتب، رغم كل هذا فإنها تريحنا منه، وتجعلنا قادرين على تجاوز معاناته. سأعقد العزم على الاستمرار، إن عارضتنا الحياة، فإننا سنتقوى، وسنضاعف جهودنا، أضعافا مضاعفة، لنبحث عن سبيل العيش في حياة هزمنا في منذ الصرخة الأولى.

فكرت أن أتسجل في الماستر بعد سنوات الإجازة المتعبة الحلوة، فلا شيء أعز عندي من القراءة، هي الوحيدة التي تسعفني على مواجهة الجهل الذي يعج به المكان، وأجعل في مخيلتي كلام الشيخ صالح الذي ترك وصية البيت لي بعد وفاته، مباشرة بعد السنة الأولى بجامعة العهد للغات، واستحضر نصائح العم إدريس، الذي أغلق محله وانتقل به ابنه إلى بلد آخر، وفيه استبدلت حذائي بحذاء آخر، رحل العم ورحل معه صاحبي، سأواصل كفاحي، من أجل نفسي، وأسرتي، التي تفتخر بي أمام أجماع القرية، بأن نديم قد أكمل دراسته، وسيصير أستاذا، لكم الحق أن تفتخروا بالسأم الذي أصابني، افخروا بي فسأظل أدافع عن أحلامي، وسأخرجكم بعون الله فيما أنتم فيه من ضيق.

3

أيام

تستقبلني الأيام ضعيف الجسد، محطم المعنويات، عصبي الملامح، عاجزا عن الحركة، لم أعد أحس بالوقت، العقارب تأكل حياتنا ونحن لم نصنع شيئا لنوقفها، التفكير في المستقبل دودة زائدة، ينبغي أن نزيلها، وأن نترك الأمر لعالم الغيبيات، ومصور الحياة، فهو القادر على تحويل حياتنا إلى أفضل حال، وجاء في كتابه العزيز: " وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123). أصبح ليلي كنهاري، لا زمان لدي، فالعطالة عن العمل، تعطيل للحياة ولكل شيء يتعالق معها، تظل محصورا في ذاتك، لا ترغب في رؤية أحد، وسكونك إلى نفسك إنجاز لا يحققه أي شخص، حينما تستقبلك الوحدة، فاعلم بأن العالم لا يرغب بأن يشركك في مأساته، ولا رغبة له لإدخالك إلى حياة مليئة بالضجر، والسعادة الكاذبة، أي قول هذا، طبعا لقد أصبت بالهذيان، لا تؤاخذني عزيزي القارئ، أحس أنك تريد أن تكّون وحدتك، أن تهرب مثلي من الصخب، أن لا تُشارك أحاسيسك مع أحد، أقول لك: إنك مؤنسي في وحدتي، لربما قد تمازجنا وأصبحنا نتشارك الحياة نفسها، أظنك حتى أنت تبحث عن السعادة، عن الحب، عن الحياة، عن المتعة، تلاطفك أحلامك وتناديك، أن أقبل، صدقني الحياة لا تحتاج منك كل هذا التفكير، وكل هذا العناء، فقد عانيت كثيرا، وسهرت الليالي، وفي الأخير لا شيء، أرى أن جهد السنوات ضاع، وأكله الزمن، أريد أن أحدثك عن شيء ما، يجعلنا نسترجع قوتنا

معا، ونعود بصورة أخرى لهذا الوجود، أكيد لن نعود بوجوه مبشوشة وضاحكة، ولا بملامح مبتسمة، سنختار صورة تتناسب مع الحياة القاتمة، سنؤوب بوجوه ضجرة، ومتشائمة، وكئيبة، ونفوس يغمرها الأسى، وتملؤها الصرامة، قد لا يناسبنا هذا الأمر، ولن يكون مفيدا، ولكن اقتضت الضرورة أن نسلك هذا المسلك، وأن نتجه إلى هذا السبيل، سيوصلنا إلى البحث عن ذاتنا في متاهة الأرواح، وظلال النسيان، لا حل لنا غير هذا الحل، وإلا سنبقى أحياء مع الموتى.

قد تأملتَ عزيزي القارئ كلامي جيدا، وقرأتَه بصمت، لأنك قارئ تجلّت فيك أسرار القراءة، لربما أنت مصاب ببعض الاستغراب، من هذا التشاؤم الكتابي، مع رغبتي لإشراكك في هذا التشاؤم، ينبغي أن تقرر فلا وقت للاستغراب، لأنني مهدت لك في افتتاحية كلامي بما أصاب البشرية، وعمّ الإنسانية، فقد تغير فيها كل شيء، تتجه نحو طريق الدمار، ولا شأن لها فيك، ولا في حياتك. الهلاك هو الغاية المنشودة للإنسانية، قد لا تصدق إذا قلت لك، إن ولادتنا كانت بمثابة كارثة فظيعة، وننتظر الكارثة النهائية، ونحن مُقادون نحوها، العالم يناشد دينا جديدا، وينصب إلها جديدا، أرجوك لا تعتبر كلامي كفرا، أو خللا في العقيدة، فأنا أؤمن بالله، وأعبده حقّ العبادة، أردت تنبيهك فقط، حتى لا تقول لي ما جاء في قوله تعالى: "قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38).

ولأزيل عنك كل الشك والريب، وأن تعلم أني سليم العقيدة بما أقول، ونواصل الحديث الماتع فيما بيننا، أورد لك قول الله عزوجل: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ

اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)".

أستيقن أن هذه الآية من سورة الحشر، كافية وشافية، ودقيقة ورقيقة، لتجعل خاطرك هادئا، وقد تستميلك، لتشعرك بالتسلية والارتياح، لتقول إن صديقك نديم، لا يعرج أن يشكك في عقيدتك، ولا أن يبعدك عن دينك، ووافية أيضا، لتتأمل كلامي، الذي سنتحدث فيه، وسيكون حديثا شيقا رائقا وعميقا. أخبرتك أن الإنسانية ذات مهد جديد، ودين حديث، ومعبد مشيد بما أراده الإله الجديد، دين ذو تحانيف توصي بفعل أعجب الأفاعيل، وصل العالم إلى مقدار من القذارة التي لا يمكنك تصورها، وتمثلها، وبالأساس لا يمكنك تصديقها، المرارة تسود كل مكان، الأرض تبتلع الناس من كثرة الحروب، السماء تحسرت وجفت دموعها من شدة فظاعة ما يحدث، أتدري لماذا؟ لأن الفضائل تماحت، والقيم انتهت، والله عند قادة العالم لا حسيب له، وأعوذ بالله من هذا القول، حتى لا تفقد ثقتي فيما سأقول لك، هؤلاء الناس يا عزيزي يسبحون في الظلمات من أجل حصد المال، وإبادة البشرية، والتحكم فيها، عميلهم الأول والأخير هو الشيطان، المال في أيدهم سفالة، والسلطة عندهم حماقة مذلة، ينشؤون منظمات الحقوق والسلم العالمي ومكافحة الإرهاب، لا تثق من هذا السبك المصفوف المرفوف الذي كتبت به عبارتهم، فإن الكلام لا يشتري الخضر كما يقول المثل الشعبي عندنا، فأكثر واضعي القوانين هم الذين يخرقونها، ستكتشف أنّ الناس يلعبون لعبة الخداع الماكرة، بالتويهمات التي يوهموننا، شرف الحياة ذهب بفعل

عهر القادة، لقد أطلت عليك عزيزي من السأم كثيرا، يحق لك أن تفعل هذا الأمر، فعميل الشيطان جعلوا العيش مريرا، وأمسى العالم بفعلهم مسرحية تمثيل لا متناهية المكر والخداع. البسطاء والطيبون والأفاضل من الناس لا يعرفون هذا، يريدون العيش في سلام فقط، فيظنون أن كل شيء في الدنيا جميل، وأن النعيم مسبح يغرق فيه الجميع، لقد أخبرتك أن مجيء الإنسان إلى الوجود كارثة عظمى تكبر كل يوم.

لا أعرف كيف يأمرهم الإله الجديد بزرع الفتنة، وصنع الأسلحة، وعقد مؤتمرات شن الحروب، وأخذ تبريرات بوضع الأمن في مناطق النزاعات، وهم أصل هذا النزاع، سأقف إلى هذا الحد عزيزي القارئ، لأنني عييت كثيرا، لا قدرة لي على تخريب ضميرك، فكر في اتفاقنا الذي عقدناه، تخلص من الطيبة الزائدة، تعلم كيف تخلص نفسك من بشاعة الواقع المعيش، عايش مكر الناس، وتدبر خدعاهم، لقائي معك لا ينبغي أن يضيع في لا شيء، كن صارما، وكن إنسانيا، لا تتخلص من الفضيلة التي تمتاز بها، ولكن تحد بؤس الدهرانية، وافهم فكرانية الإنسان، عش مع وحدتك، دع نفسك في مقبرة الكتب المنسية، تمتع بها، تذكر أن الكتب تمزق وتحرق، ويتم منعها من النشر، ويتم نفي أصحابها، لأنهم تخنقهم، الكتب ستضيء عقلك وستنير دربك، تقوى ولا تندهش حينما تجد كل ما أخبرتك به مماثلا للواقع، سأودعك الآن، لا أعرف هل سنلتقي مرة أخرى أم لا؟ ولكن أعجبت بك وبتفكيرك سنحدد لقاءً آخر وفي موضوعات أخرى، سأذهب لأبحث عن نفسي في العالم البئيس، لقد تركت أسرتي، وأنا الآن عاطل عن الحياة، عاطل عن كل شيء، وداعا عزيزي القارئ، تذكر إنني أحبك كثيرا، وسأعقد معك لقاء ماتعا، أخبرك بموضوعه حينما يحين ونلتقي، سيكون الفراق عسيرا.

4

الجفاء الإنساني

لا يمكن أن أحدد مقياس الجفاء الإنساني الذي نعيش فيه، أصرخ كل يوم، الصرخة لا تكفي للتعبير عن مقدار الألم الذي في داخلي، تمنيت لو عادت بنا الأيام إلى سيرتها الأولى، ماذا فعل هؤلاء الأبرياء الذين يموتون في أوطاننا؟ ما هدف العالم من هاته الصراعات؟ كيف تخبرني أمي بأن أعيش سعيدا، وأنا أشاهد هذه المشاهد، اللعبة الماكرة، لست أدري، كيف أكون سعيدا؟ وماذا لو كان آدم سعيدا؟ سيوران كان يعلم قذارة الوجود، لذلك ألّف هذا الكتاب، أه لهؤلاء القذرين الفاشلين المنغصين للمعيشة، والقاتلين للضعفاء، أستيقظ كل صباح على هذه الأفكار، الشغف الذي كان لدي حول الحياة، بدأ يختفي، أَلِفتُ هذا التشاؤم وأستمتع به، لا خوف من الموت، أيتها الكاتبة الجميلة إريكا يونغ، تماما لا خوف من الموت ومن كل هذه الضلالة، التي سأغترف منها قبحها لأكون قادرا على المواصلة، أه إلى أين تقود البشرية نفسها؟ ألا يعلمون أن الله وعدنا بالرحمة والمغفرة، وأمرنا بنشر السلم والمحبة، سيحل علينا غضب الله، رحمته التي وسعت كل شيء سيرفعها عنا، لأننا لم نعد قادرين على نشر الرحمة بين الناس، الخوف هو الرهبة التي تفشت في قلوبنا، لسنا إنسانيين بما يكفي لتحل علينا الرحمة، سيحصل لنا ما حصل مع قوم موسى حينما قال لقومه، كما جاء في قوله تعالى: "فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86)".

كنت ذا ثقة زائدة، أعامل الناس بأدب مفرط، أتشارك معهم أحزانهم، ولكن هذا لن يستمر، أكيد، لن يدوم، لأن هناك أمورا خبيثة تجعلنا نتخذ مثل هذه القرارات، ونعقد العزم على عدم التراجع، يلاقينا القدر بأشخاص سيئين يعلموننا معنى الاستمرار على قيد الحياة، هم في الحقيقة جيدون ولطفاء وفضلاء، ليسوا سيئين، بل هم متلونون ومزيفون، ومقنعون، فالإنسان قد يتحول إلى ملاك في أي لحظة، يظهر لك أنه إنسان كامل، كل هذا بفعل المصلحة، أينما وجدت المنفعة تجدهم، وإن اقتضت الضرورة أن يستمروا معك مكرا وخداعا مدة طويلة، هذا هو الإنسان، ليس خيرا ولا شريرا، هو فقط يتلون حسب طبيعة مصلحته، لا أصدق مقدار الخيبات التي أصابتني ومن أقرب الأشخاص إليّ، الصديق المتفلسف أحمد، متلون الملامح طالب تخصص الفلسفة، قارئ جيد وذكي، إلا أنه مقرف وقبيح، محترف الغواية في علم البنات، وفتح الأبواب، وتركها مشرعة، بعد وعود زائفة في لا شيء، حقارته أدت به إلى التخلي عن معتقده، ظنا بأنه ذو فكر تنويري، أه على عزاء الفلسفة من هؤلاء، ما يؤسفني كثيرا، هو الفخر الذي تفخره أمه في قريتنا، مرددة ابني يدرس في الجامعة، وسيصبح أستاذا، كم أنت مخطئة يا خالتي، ففخرك ثعلب وفاسد، إن أهل البادية سرعان ما يفقدون عقلهم في المدينة، يتبعون أهواءهم نتيجة الكبت الذي أقام في داخلهم كالجبال، لا أدري، هل هذا من سوء التربية؟ أم حقا لأن المدينة تفسد عقول شباب البادية، نتيجة القمع والكبث في البوادي، ولكن لا أظن، المسألة ليست متعلقة بالتربية أو الفساد، أو انعدام الحرية عندنا، أتذكر أننا كنا أحرارا، عشنا حياتنا كما نريد، بعد تخلصنا من عقدة العائلة،

فالقضية قضية مبادئ، لا قضية تغيير الأمكنة. لعلي حظيت بحظ وفير؛ لأن فهمي للحياة وبشاعتها، أخذته من رأس شيخي صالح.

قلت إن أحمد استغل ثقتي الملعونة، ليبحث عن حيلة يشوه بها سمعتي، وما قام به غريب جدا، ولا أتصور أن الشيطان قد يفعل مثل أفاعيله، واستغل أيضا لحظة سفر جمال لزيارة أهله بعد سماعه بمرض جدته، قبل سفره إلى الخارج، جمال لا وثاقة له مع أحمد، لذلك يكرهه ويبغضه، بعدما خدعه مع طالبة صديقة عزيزة عليه، وأنتم تعرفون ماذا فعل معها؟ وإن كان جمال يصنع صنيع أحمد مع الطالبات، إلا أنه شخص تعول عليه، عكس خبث أحمد، يتخلى عنك بعد قضاء مصالحه، أي شنيعة رمتها زاكورة لنا؟ أي بطن يحمل مثل هذه الكوارث؟ الناس مخطئون في معتقدهم، بأن جميع أبناء زاكورة تنطبق عليهم عبارة "الله اعمرها دار"، لا حشركم الله مع وجوه محشوة في عقولها بأكل الحمير، لا تعتقدوا ما يدور في أذهانكم أنه معتقد سليم، فقد أخبرتكم بأن الحياة لا تقف على الجمال و القبح، أو الخير والشر، أو مسلم وكافر، هذا اعتقاد خاطئ، فالناس تعرفهم في المواقف والمصالح، وما سوى هذا فلا أظن. ليزيل المغاربة فكرة التعميم، ففيها تضليل وتنكيل، صور الإنسان تشابهت، وصارت واحدة، فهم منساقون وراء تعاليم الإله الجديد، إله المال، وإله المصلحة، وأشياء كثيرة، دعني أخبرك بما ساء لي مدعي الفكر والفلسفة.

كان اليوم يوم الأحد، من المعلوم عند الطلبة في هذا اليوم، أن هناك مكانا يلتقون فيه، لاستعراض ثقافتهم الشعبية، من أغانٍ وفولكلور، وصور شهداء، يعرضها الماركسيون المزيفون، والأمازيغ ونجد في هذا

التجمع الطلابي الثقافي، التنوع الذي تزخر به الثقافة المغربية، وأنا أشاهد تلك المناظر الجميلة، في مساء صاخب، وجو حار، وفضاء يحيل بالمتعة، أصوات بمختلف الرنات تأتيك من كل الجهات، وقبلات العاشقين تسمع اصطفاقها، نغمات موسيقية تطرق سمعي، لا تكاد تنتهي إلى داخلك حتى تطرقك أخرى، وغالبا ما طرقت سمعي أصغي لأقلال زاكورة، وأحيدوس، وبعض الأغاني الثورية، وأمتعت عيني بجمال الألبسة المغربية التراثية على أجساد الفاتنات الأنيقات، وجوه توحي بالجمال يتمايل ويبتسم تارة ويثرثر تارة، ووجوه كأنها القبح بعينه، وجوه كلما نظرت إليها أصابك الضجر مما تراه، ففي تلك اللحظة تلعن شيئا اسمه الأنثى، نظرا لمناظر القبح التي تملأ المكان، إلا أن الملامح النيرة المبتهجة رغم قلتها، تجعلنا نتأمل ونستمتع، متى سيحن علينا الزمن، ليجعلنا بين أحضان الفنون الجميلة؟ فقط ينقصنا أن نكون رجالا، كما يقول لي أبي كن رجلا يا نديم، هكذا يقول لي أبي، وللجلوس في مثل هذه الأحضان تنقصني الأموال ثم الأموال ثم الأموال ثم الرجولة يا أبي.

وأنا أتجول لأستمتع بالمناظر المسائية في التجمع، رأيت أحمد، كعادته في لقاء حميمي، الماقت يحمل بحرا من المشاعر الكاذبة في داخله، كافية لتوقع ما لا حصر له من الطالبات، لا أريد أن أضيع عليه لقاءه الحميمي، تركته في راحة ماسخة، يستدرج فيها طالبة معتدلة القامة، بهية البسمة، ذات قوام جسدي مثير، تمتلك شعرا سحريا، صافية الوجه، مرتاحة الضمير، تلوك العلكة بحركات توحي بالرغبة في السرير، يظهر عليها أنها وقعت في شباك أحمد الغرامية، بفعل حلاوة كلامه. رفع رأسه فجأة، وعلم أني رأيته، فجمّد الطالبة في مكانها، وأتى عندي، سلمت عليه، ولم يرد السلام بأحسن منه، ردد عبارة تافهة، أصلا أنا أنعم في السلام مع

تلك القطة الجميلة، سألته عن أحواله وأحوال الأسرة، فقال: إنه لم يتواصل معهم، ولا يريد أن يتواصل معهم، لم أساله عن السبب، أكيد ربما وصل فساده إلى أهل القرية، فعندنا أناس بمثابة رادارات توصل عنك دقائق الأمور، قال: لا تكترث للأمر، أخبرني أين صديقك العزيز جمال؟ ربما لم يعد قادرا على اللقاء بي، أم أنه تاب عن أفعاله؟ أخبرته بأنه سافر ليطمئن على جدته، وهو مع صاحبته يستمتع بوقته، كانت ردته سخيفة، أي لقاء يا نديم، أنتم أهل الدراسات العربية والإسلامية، تعيشون خرفا، لا فكر لكم، أنتم تحفظون فقط، فكروا قليلا، لا لقاء بعد الموت يا صديقي، إن أردت أن أقدم لك أدلة، فمرحبا، قطعت كلامه، هدأت من روعي، وقلت في خاطري، لم يكن أحمد الطفولة الذي أعرفه، لقد تغير في كل شيء، انقلب رأسا على عقب، أي سفالة ينعم فيها؟ ينبغي أن يعود إلى رشده، فقد فهم الفلسفة فهما خاطئا.

أخبرته بأني لا أحتاج أدلة ولا هم يحزنون، ولا شأن لي بالفلسفة أصلا، إذا كانت تنتج مثل هؤلاء السفالة الأمقات، الذين يعتقدون في التصابح والتماسي أنهم مفكرون وعباقرة، فسلام عليهم وفلسفتهم وعن فكرها ووعيها، أنعم الله علينا بسيبويه والكسائي والمكودي والجرجاني والطائفة، كان رده مستفزا، أنتم أهل العربية التكراريون والحفاظون، تتربصون وتحشرون المعرفة في دماغهم دون تفحصها، قلت في خاطري: أفضل أن أكون سطلا يملأ بالخراء على أن أكون سافلا، أنفي وجود الله.

بعدما تأكدت من سر عدواته مع جمال، لهذا السبب إذن، لم أزد معه كلمة سوى طلب الهداية من الله والسلام، فوقف الجبان ضاحكا، قائلا: أنا أنعم في السلام، ولا أحتاج كلامك هذا، انظر إلى نفسك ربما

تنقصك المتعة، فلك ذلك إن أردت، ودون الرد على كلامه، عُدت إلى أدراجي، ذهبت إلى البيت، دون التفكير في عبارته الأخيرة، تنقصك المتعة، لك ذلك، بعد العودة إلى البيت، كانت الساعة تشير إلى الثامنة ليلا، دخلت إلى البيت وتفكيري كله في وضع أحمد، كيف يمكن مساعدته ليعود إلى رشده؟ ويتصالح مع العائلة، التي ابتعد عنها، وابتعد عن البلد، ربما يحتاج مساعدة، أخرست نفسي دون إشغال بالي به، الليلة كلها مرت بالتفكير في فاجعة أحمد، قبل أن تحل عليّ الفاجعة الكبرى، التي دبر لها الشيطان الأخرس أحمد، يا الله كل كلمة تخرج من فيه تحوي سما قاتلا، لا أعرف كيف صبرت على استفزازاته، عرفته ذا ودّ وطيبة، فكأن هذا الودّ لم يكن ولم يعرف به، ربنا أفرغ علينا مودة وصبرا لتجاوز هذه المعضلة المتعلقة بالكرامة، ترقق قلبي، ووضعت صورة أم أحمد الحقير في ذهني، امرأة طيبة، ولدت نغلا وبغلا لا يعرف حدا في المعصية، صبرت كثيرا،، وأفكر في مصدر الصبر الذي أفرغ عليّ أثناء ادعاءاته الكاذبة وجرأته على الحديث في العقيدة، ماذا فعلت خالتي حتى رزقها الله بهذا الابن العاق؟ كان صديقي أيام الثانوية، كنا لا نفترق، وكان شخصا طيبا، وبعد دخوله إلى الجامعة تغير تغيرا جذريا، كنت أحسبه الظل الذي لا يفارق صاحبه حتى في الظلام، ولكن بعد فَعلته التي سأحدثك عنها، نسيت شيئا اسمه الصداقة، ونسيت شخصا اسمه أحمد الأخرس.

في أحايين كثيرة، تكون صداقاتنا مصدرا للضرر والألم، صداقات اكتسبنا فيها ومنها المضرة أكثر من المنفعة. في الحياة لا نكون في حاجة لرسم صور الأصدقاء في قلوبنا، يكفي أن نضعهم كأشجار مثمرة تتساقط كلما دارت عليها الفصول، البؤساء في حياتنا هم الباحثون عن صداقة دائمة ومستمرة، ويحملون فكرا مثاليا عن العلاقات، ولا يحسبون حسيبا

بمكرية الإنسان، وثعلبيته، لم تعد حياتنا مهداة للآخرين، لا يهمنا رحيلهم، ولا فجاءة بما يمكرون، أساس الوجود الاهتمام بعالمنا الناسوتي الداخلي، لم نولد لنسعد حقراء العالم، ولا شدّ الوثاق بأصالة الصداقة، خلقنا بالأساس بقلب واحد، وعقل واحد، ومصيرنا واحد، قلبنا لا يتسع ليحمل زيف أولئك الخبثاء، سندفن وحيدين وسنحاسب وحيدين، وسيأتينا الله يوم القيامة فرادى، ولكن لا أستطيع الحسم اقرارا بأن جميع الصداقات ميؤوسة، فقد يأتيك الله بصداقة تَنعم بها، وتسعد بها، فَنِعمَ الجمال جمالُ، وأبشر به صديقا مخلصا ماتعا ورفيقا واثقا رقيقا، وإن كان غريبا، وليس ابن منطقتي فهو شخص أعتز به وأرجو له كل الخير.

لعنتُ الشيطان، وتركت التفكير في فعلة أحمد، فقمت وأكلت بعض الأشياء، أسد بها رمق جوعي فقط، دون الوصول إلى الشبع، وقرأت صفحات من ديوان المعري، فأثارني قول عجيب وغريب، قاله الشاعر:

وجانب الناس تأمن سوء فعلِهم وأن تكون لدى الجلاّس ممقوتا

لا بدّ من أن يذموا كلَّ من صحبوا ولو أراهم حصا العزاء ياقوتا

كنت أعتبر الرفقة محمدة ونعمة ربانية، أما الآن فهي مقت وسوء، لسنا مجبرين على اعتناق أرواح الناس، اعتناق أنفسنا أفضل ما يمكن تحقيقه، أما اعتناق الآخرين فلا نجد فيه سوى الألم والبشاعة، كانت فعلة أحمد في تلك الليلة السودادوية صدمة وكارثة بالنسبة إليّ، لما علم أحمد أنني وحيد تلك الليلة، أخبر طالبة تحترف المسامرات الماجنة، راغبة في المال، وراغبة في المتعة، فقدم لها عنوان البيت الذي أقطن فيه، فزارتني تلك اللية المتظلمة، قائلة أخبرني صديقك بأنك تبحث عن فتح أبواب

المتعة، وترغب في الاستمتاع بجسد أنثوي مثير، وتتشوق إلى زيارة أكثر منطقة تظنونها مثيرة في المرأة، أخبرتها بأنني لم أفهم قصدها، عن أي صديق تتحدثين؟ وما محلك من الإعراب؟ لا ينقصني سوى همك، حدثتها أنني لا أتقن الحديث مع البنات، ولكن ماذا تريدين؟ أجابت، جئت لأقدم لك المتعة كما قال صديقك، مع مقابل مادي زهيد، لا تخف، لن أطلب منك الكثير، أرى فيك حقا أنك لم تجرب من قبل، هكذا قال صديقك أحمد، أدركت قصدها وفهمت مقصدها بعد ذكرها لاسم أحمد، قلت لها: رجاء سيدتي أنا لم أطلب منه شيئا، أراد فقط أن يوقعني في الرذيلة كما فعل مع أصدقاء كثيرين، فعل بهم مثل هذه الأفاعيل، لم ألتق به لأطلب منه أمرا كهذا، أجد حرجا أصلا في إطالة الحديث معك ومع الإناث عامة، فكيف أزعم على طلب ما تسمينه بالمتعة، كنت قد صادفته في المعرض الطلابي اليوم، وسلمت عليه، لأنه ابن منطقتنا، الجنوب الشرقي، فأخبرته بأنني وحيد، فاستغل الفرصة فأرسلك إليّ، وأنت مجرد ضحية مستغلة بغباء، لا أدري كيف تسول لك نفسك المجيء بهذه السهولة والبرودة؟ لا أعرف كيف تستطيعين بيع جسدك بهذه السذاجة؟.

قالت: أنا صديقة لأحمد، وأثق فيه كثيرا، ولما أخبرني بالطلب قدم لي العنوان، لم أستفسر عن الشخص، ولم أزد على الموافقة بكلام آخر، وجئت إليك مباشرة، استغربت من حديثها هذا، فقلت لها: المال أعز وأرقى من قداسة ذاتك، وفي هذه الليلة الظلماء تأتين رغبة في تحصيله، دون وضع اعتبار لكرامتك، ربما أوقعك أحمد بكلامه الساحر والمتلون، وجعلك في مصيدة الثقة الزائفة، لا أحتاج إلى متعة يأتي بعدها ندم شديد، ولا رغبة لي في تجربة مثل هذه الأمور، افهميني أنا إنسان جنوبي مشاعري معطلة، ورغباتي مفقودة، متعتي الآن يا سيدتي مع الكتب،

وتحصيل المعرفة، أبحث فيها عن متعة دائمة لا متناهية، ابحثي لك عن بديل آخر، أما إذا كانت متعتك محدودة بالمال فهناك مِهَنٌ تحافظين فيها على جسدك الإيروتيكي، دون أن ترميه كبقايا السيجارة، على سرير رخيص، وأمام أشخاص وحوش، يتمتعون ويستمتعون ثم يرمونك، ويجعلونك في ألسنتهم باغية وعاهرة.

إن ممارسة البغاء مقابل المقابل المادي، من تباشير الإله الجديد، تَفَهّمت الطالبة الأمر، وشعرت ببعض الخجل، ووضعت يدها على رأسها، رأيت في وجهها براءة ضائعة، وجمالا ضائعا في البغاء، مع الخبثاء، رأيت فيها ثقة زائدة لعينة، لما رأيتها في تلك الحالة أخبرتها بأن نخرج إلى الخارج ونتحدث قليلا، حتى لا ينفضح حالي مع الجيران، رغم تأخر الوقت، خرجنا لأكون طرفا يغير حالها إلى أفضل، حال، ورغم أننا نقر على عدم الاكتراث لأوامر الناس، فإن ضميرنا لا يسمح للإنسانية أن تتلاشى وأن تزول.

جلست معها في حديقة قرب مقر الكراء، وكانت الساعة العاشرة والنصف ليلا، أخبرتها بما يسعى إليه أحمد، تجمدت الفتاة في مكانها، حاولت أن أفهم سرّ تتبعها لطريق البغاء، وغاية اتباعها للمسامرات، كانت تحمل هموما مثل الجبال، قالت: أنها لم تجد ما تصرفه على نفسها، لمشقة ظروفها وكثرة أعباء الحياة عليها، وكونها عاشت حياة شديدة في طفولتها، لم تستمتع بها، ولم تكن تألف جو المدينة، ولا دراية لها بما فيها من تطور وتقدم، وحرية عرائية، جاءت من القرية، لتكمل دراستها الجامعية في الحقوق، فاندهشت مما رأت وبدا لها منتشرا في المدينة، وسعت في العهد لتبحث عن عمل ولم تجده، فوجدت طريق ممارسة

الحب الملجأ الذي يسدد حاجاتها، المسكينة أي مال ستجدينه عند أحمد وعندي أنا؟ لا نملك سوى دراهم نأكل بها وجبة واحدة، منتظرين خروج المحنة التي تقدمها الدولة للطلبة، حزنت لحالتها، ولصدقها وصداقتها وبراءتها وثقتها، كانت طالبة جميلة الوجه، حسنة المنظر، معتدلة القوام، ضائعة في شرفها، وفي شوارع المدينة، بكت كثيرا، بعدما سمعت كلامي، وتحسرت على ما تفعله، وما فعله أحمد بها، لا لومة على أمثالك، اللومة على الذين يستغلون عجزك لقضاء مصالحهم، واللعنة عليهم وعلى أموالهم.

لم يفلح أحمد لإيقاعي في ضلالته، ما فعله جعلني أمقته مقتا، وأكرهه كرها، لا أعلم ما به، وماذا أصابه؟ أرجو له الهداية، ولكن علاقتي معه انتهت، لن أسمح لنفسي أن تلتقي معه مرة أخرى، ودّعت الطالبة، وعَرّفتها بنفسي، وتعرّفت عليها، وقلت لها إن احتاجت مساعدة أن تتصل بي وتتواصل معي، وإن كنا نحن أكثر المحتاجين إلى المساعدة، ذهبت ودموع الحسرة تتساقط عليها، كنت صارما معها بهدوء، تأثرت بما قلته، لم أكن أعلم أنني أتقن الاحتضان الكلامي، واستمالة الناس والتأثير فيهم لهذه الدرجة، كان اسمها سارة، آخر كلمة قالتها بعد ذهابها، لله القدرة على ردّ عبده إلى الطريق المستقيم، لم أندم على مقابلتك يا نديم، ففي كل شر خير لا نعلمه، واصلت الكلام قائلة: أنني أحترق من كيد أحمد بك، أما أنا فوددت لو ألقيت بنفسي في مكان علٍ بسبب صنعته ومكيدته النكراء الشنعاء، والمشكلة أن أسرتي لا علم لها بما أصنعه وأفعله، وهذه مشكلتنا نحن الإناث، لا نلقي حسيبا لشرف الأسرة، نفعل ما يمليه علينا عقلنا متى كنا بعيدين عنهم، ووحيدين في مكان لا يراقبنا فيه إلا الله.

حركت رأسي، وهمست في خاطري، أبعد عنا الله الحرام، واحلل عقدة لساني لمساعدة إنسانة بريئة، أتت من العالم السفلي، عالم منسي، وذهبت، وقلت: لا رغبة في إعادة ما حدث لشخص ما، فما وقع لي مع أحمد أمر غير مصدق، نسيت ما حصل، وبعد مرور أسبوع عن الحادثة وصلتني أخبار بأن الطالبة قد وبخت أحمد وفضحته أمام الملأ بكلية الحقوق، وكان وداعهما بالسب والشتم، وحسنا فعلت فلا محل لبريئة مثلها مع ذلك الخبيث، مدعي التفلسف، وجاهل الفلسفة، هوى به عقله إلى دراسة الفلسفة وهوت به نفسه، إلى ادعاء أنه مفكر، وظن أن الفلسفة متعارضة مع الدين، هوت به نفسه، إلى اعتبار الحرية هي حرية فعل ما يشاء، الحرية مغلطة في عقله، إن الحرية هي المصالحة مع الذات، والأخذ بسبل تنميتها، وأن نأخذ ذواتنا على النقد، فحتى قولة نيتشه الشهيرة يأخذ أحمد وأمثاله بظاهرها، مات الإله ونحن من قتلناه، يفهمون أن الله حقا ميت، والأساس أن عقولهم هي الميتة، التي تستقبل جميع المعارف دون إعمال بصيرة، وإقرار شك، وإظهار نقد، وإن كنت طالبا في الدراسات العربية، فالفلسفة برّاءة من هذه الأفكار، التي يرددها متخصصو الفلسفة في الإجازة.

5

العدو الداخلي

اليأس من الحياة لا يعد جريمة، فقد يكون المحدد الرئيس لمسارك، فكرت بأن أكمل مساري الدراسي، فتقدمت لمباراة ماستر بمدينة النصر، كلية الآداب، جامعة ابن الياسمين، لعلي أحتضن مقاما تأمليا آخر يغير نظرة جُرمِ الحياة ومأساتها، لأسافر بالناس بعبارات مطروزة ومسكوكة تحيي فيهم آمال عيش جديدة، نغير الأمكنة والمأساة على حالها، تحركنا الظروف والحياة من مدينة العهد، إلى مدينة النصر، التي سأكتشف عالمها، إذا ولجت سلك الماستر، مدينة العهد، عهد بيني وبين نفسي على مصالحتها، وعهد على مواصلة ما نصحني به الشيخ صالح، والعم إدريس، وأبي وأمي العزيزان، وأنا أترك مدينة العهد، أتذكر قول الشاعر العربي:

ليت الدّيارَإذا تَحمَّلَ أَهلُهَا... دَرَستْ فلم يُعلَم لها بمَكَانِ

إنّ الدّيَارَوإن تَقادَم عَهْدُها... مّما تُهَيّج دَائمَ الأَحْزَانِ

مدينة النصر عهد آخر في جامعة الياسمين، أناصر فيه حالي، وأعانق فيه أملي، وأتجاوز فيه أحزاني، نعم أتجاوزها، لأنني أهلكت نفسي بها. يكاد يكون قولي صحيحا، ولكن أفقد أملي من الأمل الذي أعقده على الحياة، بسبب المناظر التي نسبح فيها، وأحدثك أنني تفوقت في ولوج سلك الماستر، بعد مباراتي الكتابي والشفوي، لم أصطنع فرحة، لأنني لا أفرح بما أصنع، أحمد الله فقط، تلك المثالية التي نسمع بها عن الماستر، زالت من اللقاء الأول مع منسقي الماستر، يظهر أننا سنحصد البؤس بهذه الكلية، تباشير غير محمودة، لا آملُ أن أسرد على القارئ شيئا، مما يقع

ويحصل في مطبخ الكلية، ولكن دعني أقول لك بأن الفضيلة، أمست اليوم لصيقة ومترابطة بالذين لا يبتغون علوا ولا تقدما، همهم الأكبر العيش بما كتب لهم الله من رزق، وما وجد في يومهم، وما يأتي غدا فالله حسيبه، يسعون إلى احتضان المحبة والسلم في قلوبهم، هؤلاء الطيبون قليلون جدا، لا يدمون طويلا، أما الذين يريدون المتاع والفوز في الدنيا فالأخلاق وعائلتها، لا قيمة لها عندهم، يعتبرونها وسيلة لقضاء المصالح، وابتغاء تحصيل المال، كان طه حسين محقا لما قال عبارة جميلة: " الأخلاق في وجه هؤلاء رثة لا قيمة لها"، كل ما يحقق لهم الأساس الذاتي وإن كان مذموما فله قيمة عظيمة، هم الذين يحملون حقدا داخليا، ففي دواخلهم مقبرة مدمرة للإنسانية، الإنسان يحمل عدوا قاتلا، لا يظهر للعيان، بل ولا مقياس ولا محدد له، يتلاشى في عروق الإنسان ليقضي عليه. فداخل الماستر وجدت أن اسم الأستاذ الجامعي تسمية تضخيمية للبعض، سموا بذاك الاسم فقط، هذا هو الحال في كلية الآداب، وباقي الكليات في البلاد، فلا مرقاة لهم ليكونوا إنسانيين، وأما الأستاذية فَأبْعَدُ عنهم بكثير بعد المشرقين والمغربين، أفاعيلهم وسلوكاتهم تضر الخاطر، والعلم برّاءٌ منهم، همهم الأسمى والأجلّ، ملء الخزينة وشراء سيارة فخمة، والفخر بمنزل يطل على البحر، أما المعرفة حبيبي الطالب فمطروحة في بطون الكتب، حصّلها أو دعها، أما هم لا يلقون إلا كلمات رنانة عليك، فتظن أن صنيعهم جليل ومحمود، والوالجون إلى الماستر، ليسوا باحثين كما تظن، بل أدنى من ذلك وأزل، ولا تجعل قولي معمما، فضع الاستثناء معك جانبا، وتعلم أن الاستثناء لا يقاس عليه، ما عايناه من المشاهد في الجامعة أفظع مما سمعناه، وليس الشاهد كالعيان، الطالبات لا يعرفن الاسم من الفعل، والمبتدأ من الخبر، ولا يفرقن بين المقابلة والطباق، ولا

يعلمن أصلا من أصول النحو العربي، تسألك وتحدثها بكلام يفيض ببعض الأسماء القديمة فلا تكاد تفهم شيئا، إنهن يدرسن في الماستر، لا هن بباحثات ولا هم يحزنون، وأنت تعلم ما هن، وأنبهك على استحضار إلا في اللغة وعملها مرة أخرى، وإذا تحدثن بكلمة، أو نطقن بحديث وقعن في فاحش اللحن، فلا مقدرة لهن على تكوين جملة صحيحة وسليمة، وأمّا الطلاب في هذه الكلية، وخاصة طلاب الماستر، فأَبْخِس بها من قاعدة لديهم، وأف لما يفعلون، يستعرضون عضلاتهم أمام طالبات الإجازة المبتدئات، بأنهم باحثون متميزون متمكنون، هم خيرة ما أنجبت الجامعة، وهم لا يعلمون شيئا، ولا يعرفون في تخصصهم مقدار حبة من خرذل، فقط يسعون إلى كسب الصداقة، وسد مشاعرهم الممقوتة، هم أقرب من البحث العلمي تفاخرا، وأبعد منه جدا واجتهادا، تبا لمن يظن أن الشهادة ترسم اسم الشخص، وتبا لمن يظن نفسه فاهما وحاذقا وعالما في تخصصه، أن يلقي بك الله وسط الضجر أيسر وأسهل من أن يلقي بك في مكان ماقت اسمه الجامعة، تتبدد لدينا فيها كل الصور الجمالية والتقديسية التي كنا نسمعها، العلم مع الفئة التي حدثك عنها أكرهتنا من شيء اسمه الجد، عقولهم وعقولهن خاوية ومليئة بالكسل واللحس بالمعنى الدراجي للكلمة، وأتساءل مستغربا عن سبب ولوجهم للماستر؟

لن أجيب، فالأمر واضح، وضوح المكر في عيون الإنسان، والمسائل مكشوفة ومفضوحة، أساسها أن احتراف الملق والعبودية يحقق لك ما تريد، وأما الأساتذة المضخمون الذين ينعتون الطلبة بأنهم لا يرقون لمقدار التلمذة، فهم أصلا لا يعدون إنسانيين، ولا يرقون ليكونوا تلامذة، وما بالك عن الأستاذية، البحث العلمي عندهم، والدراسة لديهم ذهبت في خبر هذا أعرفه ويأتيني بأخبار الحاقدين، وهذه إيروتيكية، وذات جسد

ايتيكتي. قبعوا في الجامعة ليمارسوا هذه المهمة، ويقولون في الأخير نريد مالا لا علما، سامحهم الله، يعيبون على الطلبة منقصتهم المعرفية، وعجزهم عن القراءة، وهم أشد فظاظة، فهم مرضى داخليا، بمرض داخلي، ليس خبيثا فقط، بل هو عدو متزمت، هو فساد الضمائر، ليسوا متخذين أن العلم لا يهدف إلى بغية ذاتية، ولا إلى تحقيق مصلحة عاطفية، ولا إلى إظهار شأن، وإقرار عظمة، وإعلاء قدر، فالعلم أيها السادة اصطفاء رباني، لا يجعل الضمير عبثيا.

بدا أن الإنسان عامة يعاني من عدو داخلي هو خبث الضمير وفساده، ضمير منفصل عن الإنسانية، وعن الحياة، وعن المحبة والسلام، ومتصل بالخبث والحقارة والفساد والجفاء، والتمرد، إن الإنسان يستتر الحقد الدفين ويلقيه في العالم فيتكاثر فتنشب به حروبا وكوارث، البؤس هو مكسبنا الوحيد، أما الفرح فهو اصطناع بشري نواجه به العدو الداخلي، والحزن لا يكون مصطنعا، فهو معنا أينما حللنا، والمشكلة المعضلة، المأسوف عليها، أن مصدر الثقافة عندنا، والغناء المعرفي، وتكوين الأفكار ومركز بناء العقول، مريض أخلاقيا، فالجامعة تضم أساتذة لا مجال لهم بما يدرسون، وكفى بما يكتبون ويدرسوننا شهادة على ما أقول، وكفى بعدم خوضهم في مجال إنتاج المعرفة وتجديدها شهادة قاطعة ومقنعة، تنتج الجامعة عندنا ضمائر منفصلة عن الواقع ومنفصلة عن مستجدات حياتنا، ومتصلة بتخريب حيواتنا ومعيشتنا، ما أصبغت به الجامعة عزيزي القارئ، زيف متناهٍ، وما يطبخ فيها وفي دواخلها طعمه فاسد، ولا أتحدث عن هذا تعميما، بل داخل التعميم تخصيص لثلة أساتذة نفخر بهم وبمحاضرتهم.

طلب المعرفة هو أملنا الوحيد، نقدم لها كل شيء، نصرف وقتنا من أجلها، نأكل أكلة واحدة من أجلها، نغادر بلدنا ونعيش غربة مريرة من أجلها، ابتعدنا عن أحضان الأمومة، وفقدنا نصائح الأبوة، وتشوقنا لدعاء الجدة، وسخائها، وفي الأخير نجد حرم المعرفة، أو حريم الجامعة، مطبخا يطبخ فيه الجهل والغش والتفاضل والحقد والبغض، ويكبر فيه العدو الداخلي، الضمير الفاسد، المنتج لضمائرَ فاسدة.

6

انعطافة جديدة ومسار جديد

في النصر صادفت شخصا آخر وصداقة أخرى، الصديق سعيد، الذي يخالفني كثيرا في أفكاري، يحاول أن يقنعني بأن الإنسان يستطيع أن يخلق السعادة لنفسه، وأن يعيش عيشة هانئة، فقط ينقصه الإيمان بالحياة، وربط الصلة بها وبخالقها، لم أر نظرة تشاؤم على وجه صديقي، الذي عرفته في النصر المشؤومة، إنني أجده شخصا بشوشا وقورا، وقارئا نهما، جميل الوجه، معتدل الجسم، نقي السريرة، حافظ الأسرار وكاتمها، وصادق الرفقة، عشنا أياما تلتصق في الذاكرة، وتتملص من النسيان، ورغم عقدي مع نفسي وثاقا بعدم الثقة، ولكن أخلاقه جرتني على العِشرة معه، فهو ابن مدينة النجد الجميلة، كان سعيد يخبرني دائما بأنه يريد أن يصبح مثقفا عضويا تكون له القدرة على التأثير والاستمالة والاستهواء، سعيا منه إلى تغيير نظرتهم، وتوعيتهم بما لهم وعليهم، هذا هو مسعاه حينما تعارفنا، كنت أقول له: إنك تخط على ماء يا صديقي، فرأس مالنا هو الصمت والرجاء من القدرة الربانية التدخل، لإيقاف هذه الفواجع والفوضى، التي تسبح فيها البشرية.

يحدثني صديقي دائما، تجاوز تشاؤميتك البئيسة يا نديم، أرى أنك زدت تعلقا بهزل كونديرا، وأولعت بتشاؤمية العدمي سيوران، وتجاذبت أفكار سلافوي جيجك، وناوكي ياناسي، وبيل هيكس، ونيتشه، وشوبنهاور وقائمتك طويلة جدا، فيما سيصلح لك هذا؟ وبم سينفعك؟ ولكن العيب ليس عليك، العيب على نقاشتنا مع مدعي الفلسفة بالكلية الذين وجّهوك

إلى قراءة هذه الكتب، وخصوصا صديقك أدهم، الذي أرجو أن تتملص منه ومن أفكاره الخاطئة عن التفلسف، وقال لي: ألا تعرف أن أدهم هذا لا صلة له بالدين، تجده في كل نقاشاته المزيفة بالفلسفة يعارض سنة الله في كونه، ويردد أن لا حياة بعد الموت، لا يصلي أبدا، ويعتبر أن تقاليد وعادات الدين الإسلامي مجرد تخاريف وهرطقات نقوم بها، هل أنت راض عن هذه الأفكار؟ هل تعتقد أنه فهم الفلسفة حق الفهم؟ إن تخصصه في الفلسفة يا نديم، تخصص مزيف، يتباهى بنفسه كلما نطق بقولة فيلسوف، ويتعالى كلما تأثر بأفكاره، أظنه ظنا يقينا أنه عالة على الفكر والوعي يا نديم، وإذا كان الفلاسفة يدعون إلى ما يسفه به أدهم، فأف على هذه الفلسفة الحقيرة.

لربما إن الطلبة الذين يتخصصون في الفلسفة بالجامعة هم من قتلوها، وجعلوها منفرة في عقول الناس، يقرأون سطر كتاب، ويحفظون قولة كاتب، فيظنون أنهم عقلاء ومفكرون وفلاسفة، لهم الأحقية في توعية الناس.

سارعت إلى إسكات سعيد، وقد اتفقت مع رأيه في الطلبة الذين يدّعون الفلسفة والتفلّسف، إنهم أفسدوا الفلسفة، وجيّفوها وقاموا بتشويهها تشويها مؤلما وفظيعا، قلت له: لِتَعلم يا سعيد الحكيم، أنني كنت أرضي أدهم في كلامه فحسب، لكوني لا أريد أن أتزايد معه في الكلام، لا أحتمله فأسارع إلى التخلص منه بارتضاء مقوله، وأسعى إلى هذا بأية طريقة، وما ترى من الأفكار التي أنطق بها هواء وعفوية، فلا أزعم فيها أنني فليسوف أو ما شابه، أو مفكر يبتغي التغيير ويقصده، هي أفكار أخذتها من الكتب التي أقرأها، وسهرت معها، فتولدت في عقلي بمحض إرادتها.

سعيد صديقي الجميل، طالب معي في الدراسات العربية بسلك الماستر، بجامعة ابن الياسمين بالنصر، التقينا أول مرة في الامتحان الكتابي، لما جلستُ في ساحة الكلية، فجاء يحدثني سائلا، هل لك أن تجيبني أخي عن مسألة خاصة بالإعراب القاهر، وبالأحرى مسألة مشهورة بين النحاة، إني أجد مشكلة عويصة في التعامل معها، قلت له تفضل صديقي، ما عويصتك؟ فأخبرني أنه يريد معرفة مسألة لغة أكلوني البراغيث؟ فأجبته هزلا، والله لقد أكلتنا البراغيث وضاجعتنا الخفافيش في هذه الحياة، وفي هذا الوطن، لم نعد نقدر على مواصلة المسير، ترمي بنا أحداث الزمان من مكان إلى مكان، بحثا عن لقمة العيش، فقال ضاحكا: أرى أنك تلبّست لباس التشاؤم أيها الصديق.

قلت له: دعك من هذا، كنت أمزح معك فقط، سأشرح لك المسألة، كما قالت العرب: فأكلوني البراغيث هذه، اجتمع فيها فاعلان، فاعل أول في واو أكلوني، وفاعل ثانٍ هو البراغيث، وهي لهجة عربية قديمة، وهي إضافة واو الجماعة أو ألف الاثنين أو نون النسوة إلى الفعل المسند إلى فاعل ظاهر. استحسن الشرح وشكرني، فعفوته وذهب يجلس وحيدا، واجتزنا الامتحان، ونجحنا في الاختبار الكتابي، وبعدها تفوقنا في المباراة الشفوية، وقررنا البحث عن بيت للكراء. اكترينا بيتا صغيرا يتسع لأربعة أشخاص، ولكن بقينا فيه نحن معا، لا نريد أن نشق علينا بشخص آخر لا نعرفه، يلقي بثقله بعدم القيام بواجب العشرة.

لما اكترينا البيت قلت للصديق، يا للفظاظة متى سنستقر ونقف على أرجلنا؟ ونستمتع بالحياة مع زوجاتنا وأبنائنا، عيينا من هذه التجولات، وملّلنا من الاتكال على الأسرة، بانتظار مصروف يأتينا لنتحرك، ونتنفس

قليلا بحرية. أجاب: آمالنا في الله، سنصل إلى ما نريد بالصبر، ودعنا نكون طالبين مجدين بهذا الماستر، نحصل النقط والمعرفة، ينبغي فقط أن نتخذ القراءة شيئا مقدسا، لا نفارقها، ولا تفارقنا، وسنكمل بعضنا بعضا، أنا ذو تكوين تراثي، وأنت تجمع بين هذا وذاك، تأخذ من كل علم بطرف.

صديقي مولع بالشعر، وقارئ عميق للروايات، ورأيه في الفلسفة نابع من عدم حبه لقراءتها، لا يشبهني في قراءاتي التي أقرأ، نتشارك حب الأدب، وننفصل في قراءة الفلسفة، التي قرأتها دفاعا عنها من أمثال أحمد وأدهم، وأستيقن حتما أن سعيد إذا اطلع على شذرات فلسفية، سيتعلق بها أشد تعلق، وسيسهر معها ليالي، متأملا كتبها، ومتفحصا أفكارها، وسيبتعد عن الآراء التي أقرها في ذهنه عن الفلاسفة، وبالأحرى من الصورة التي ينقلها الطلبة الفلاسخة المزيفون عن الفلسفة، فقط تنقصه المبادرة إلى فعل ذلك، حدثته بأن يترك العربية قليلا، وأن يدرس الفلسفة.

وأسردت عليه هذا الموقف فخاطبني وقال: اسمع يا نديم، كلامك منطقي جدا، وذو اعتبار سليم، ولكن ماذا أفعل بالفلسفة ما دمت متخصصا في العربية؟ ألا تدري أن عيب طلبة الدراسات العربية، أنهم لا يفقهون تخصصهم، ويذهبون إلى دراسة تخصصات أخرى؟ لا أريد أن أكون من تلك الفئة، التي إذا لاكت الكلام، مزقته وشوهته، ولحنت فيه، هم غير مِنْطِقِين باللغة، إنهم ملوثون لغويا، عربيتهم العرباء خرباء وفاسدة، يكفي أن أكون متمكنا في تخصصي، أما الفلسفة فلا علاقة لي

بها، وبأفكارها، أصلا هي تقود إلى الكفر، وتتعارض مع الدين، ألست مقتنعا بما حصل مع أدهم وطائفته؟

أجبت، بلى، وصدقت كلامه بتذكر ما كان عليه الفاسد أحمد، وصاحب الذنب معي، وقلت همسا أهم متشابهون في سلوكاتهم وأخلاقهم؟ لا أظن ذلك، أخبرت الصديق أن ما يقوله مجرد حكم قيمة، فستعرف حق الفلسفة المعرفي والفكري في تطعيم الحياة، فَحَقِيقٌ أن هناك فرقا بين المتعمق في الفلسفة، والمبتدئ فيها، الأول يصل إلى حقيقة الكينونة والوجود، والثاني يصل إلى حقيقة غبائه وضعفه وجهله، وأستاذ الفلسفة وطالبها يا سعيد ليسا فيلسوفين.

وبعد مدة من المعاشرة واحكام النقد وإعمال البصيرة، تغيرت نظرة سعيد، وبدأ يطلع على كتب الفلسفة، ويتعامل معها، ولكن بحذر تام، تجاذب أطرافها، وبدأ يطلع على الفلسفة الوجودية، والعدمية، والنفعية، والرواقية، انعطف انعطافة جديدة، بدد من خلالها رأيه السابق، وحكمه القيمي، الذي بناه بناء على نقاشات مخربها، وبناء على تجمعات طلبة الفلسفة الفارغين، حقا ثمة أشياء يفسدها أهلها، فالدين فسد بأهله، والتعليم خرب بأهله، والجامعة خربها أهلها، ونحن نخرب أنفسنا بأنفسنا.

7

الصرخة

الناس يولدون ويأتون معهم بصرخة دائمة، وبعدها يَخلُقون بأنفسهم صرخات تسمع صداها في جميع الأرجاء، ويرحلون ويتركون صرخات لا متناهية، فالصرخة تتولد فينا كل يوم، تخلق فينا الجفاء، هي الملجأ الوحيد الذي نواجه به مأساتنا، وجنون ما أصاب العالم، أينما أدرت وجهك تسمع صرخة، أي قلق أصبنا به وتناسل معنا؟ لقد بدا لي أنني مشتاق لعزيزي القارئ، لأحدثه وأتحاور معه، فأظنه يضم في داخله صرخات، وأحسبه يلامسه القلق والفزع والخوف، تشوقت لنتحاور قليلا، أرجو أن يكون اللقاء الأول ذا فائدة عظيمة وسديدة، لعلك صرخت في وجه العالم، وتغيرت تعاملاتك معه، قد يتحقق هذا، أتدري أننا نكتب عن الحزن ليس لأننا عشنا حياة ممقوتة، أو طفولة متزمتة؟ لقد كنا سعداء بما فيه الكفاية، وعشنا أيام فرحة، رغم ما أسردته من كلام عن معاناة أمي وشقاء أبي، فلما انفصلنا عشنا السعادة والأمان، ولكن لما تصادف نضجنا مع الواقع تغيرت الحال، وأصبحنا يائسين أكثر من اللازم، ظننا أن السعادة شعور يشعر به الجميع، وإحساس تتشاركه الإنسانية، وأنها سمة تعم ظلال الكون وتغطي ملامح الوجود، لكن عزيزي القارئ، هذا غير بادٍ، وغير ظاهر، فالتعاسة أصل هذا الوجود، الصرخة ولدتنا، بدايتنا صرخة ونهايتنا صرخة، تدللنا الصرخات كثيرا، تباغتنا الجروح، نعيش بالأحزان التي نكتب عنها لا لأننا عشنا أحزانا، بل لرفضنا حزن الآخرين، فهم مدفونون في الألم، محشورون في صدر الصراخ، إننا ننتظر

النجاة والمآل بكل شوق، أحلامنا بسيطة هو أن نعيش حياة هادئة، نريد أن نغرق في السكينة، فصمتنا لم تعد له القدرة، إنه صمت مفجع.

يكفي أن نتجول في الشوارع لنرى مقدار الصرخات التي يولدها الناس، ننتظر القرار الإلهي الحاسم، لإنهاء هذه المسرحية المأسوية، لنذهب إلى مكان لا نهائي، لا فظاعة يمكن الحلم بها بعدها، إن العالم موبوء بالأشياء الرهيبة، أيها القارئ إننا نصرخ منتظرين سلاما وحبا وأملا وحياة نعيمة، لعلي سأحدثك عن قول للأديب الإيرلندي صمويل بيكيت، رائد مسرح العبث، لما سئل في حوار له مع توم درايفر، في حفل نظم لتكريم مثقف إنجليزي، سأله الأخير لماذا يكتب دوما عن الأحزان؟ أخبره بأنه عاش طفولة سعيدة جدا، فتضاعف شعور السائل بالضلالة، فترك صمويل الحفل وخرج وركب سيارة تاكسي، فرأى ثلاث لافتات، كتبت عليها ثلاث عبارات، واحدة تطلب المساعدة للعميان، وأخرى للأيتام، والثالثة لمساعدة لاجئي الحروب، فقال: أنتَ لست بحاجة للبحث عن الأحزان، فهي تصرخ في وجهك حتى في تاكسيات لندن، فهمتَ القصد أيها القارئ، فالأحزان تصرخ في وجوهنا في كل مكان، لا نكتب عنها فقط، بل هي تأكل معنا وتعيش بجوارنا، نعيش عنفا عالميا، مولدا لهذه الأحزان.

تخرج إلى الشارع فتجد المتسولين، وتفتح التلفاز فتشاهد مجازر وحروب العالم، تذهب إلى المسجد فتجد أمرا بصلاة الجنازة على إنسان قُتل ظلما، تتمرح ليلا حتى تشاهد مطاردات بوليسية، تلج إلى المحكمة فتجدها منفجرة بقضايا الخصومات، تزور المستشفيات فبئس مناظرها ومشاهدها، كيف تريدون أن نبتسم، وأن نضحك للدنيا؟ لم يكن قصدي أن أحزنك عزيزي القارئ بعد شوقي إليك، أردت فقط إخبارك، لأنك ربما

سئمت من الأحزان التي تبوح بها لغيرك ولم يراعيها أي اهتمام، واسِ نفسك، وأحزانك، ودعها مكتنزة في داخلك، فالعالم مليء بها، واصرخ متى شئت، وابك متى أردت، ولا تؤاخذني بما أقول لك، لأني متناقض، لعقدي معك اللقاء لأبوح لك بما أحمله في صدري من صرخات.

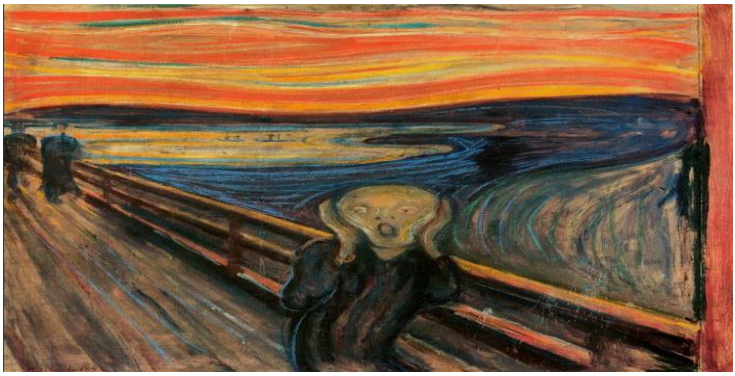

الصرخة المشهورة للفنان والرسّام النرويجي إدفارت، مونك صوّرت شخصية معذبة أمام سماء حمراء دموية، فهي لوحة مجسدة للقلق الذي يفزع الإنسانية، ومبرزة لهروب مأسوي من الواقع، لم يعد الناس يتحلمون كل هاته المعاناة، يريدون خلاصا أبديا، لا أرض قادرة على احتضانهم، كلنا ننتظر جودو، الذي تحدث عنه صمويل بيكيت في مسرحيته "في انتظار جودو"، إننا نمثل الشخصين البائسين اليائسين الجالسين تحت شجرة يابسة، ننتظر جودو الذي يستطيع أن يغير حياتنا، ويجعلنا نعيش في النعيم. أرى أن القارئ يريد فهم سر إيراد صمويل مرة أخرى، سأبين له هذه المسألة، إن سر استحضاره مرتبط بأننا نبحث عن منقذ ينقدنا من هذا الضلال، ويخلصنا من هذا المزلق، فالمسرحية فيها شخصيتان، الأولى ستراغبون الذي فقد حذاءه ويعاني من ألم مستمر في قدمه، والشخصية

الثانية هي فلاديمير، الإنسان المثقف والمفكر، الذي يقدم أفكارا ذكية دائما، لا حياة لهذين الرجلين سوى اليأس، يبحثان عن سبيل يخلصهما من معاناتهما، فيأتيهما الخبر من وسيط ومرسل من جودو بأنه سيأتي لينقذهم من معاناتهم، وبعد طول الانتظار، قررا شنق نفسيهما، وتحديد مصيرهما بالموت، لكنهما فشلا، ولم يفعلا ذلك، إنهما عاجزان حتى عن قتل نفسيهما، والخلاص من يأسهما وصرخاتهما، وقد انتهت المسرحية دون معرفة مصيرهما، ودون مجيء جودو، فنحن نقيس الإنسان الصارخ اليائس على أنه يمثل شخصية من هاتين الشخصيتين، كلنا ننتظر جودو الذي سيأتي، ننتظر جودو الحرية إذا كنا سجناء، وجودو الحب إذا فقدنا العناقات والأحضان، وجودو السلام إذا كنا نعيش حروبا، وجودو الله ليخصلنا من هذه المحن، وجودو الصحة؛ لأن أجسادنا تلاشت ومرضت وعلّت وتماحت مع أحداث الزمان. فلكل شخص منا جودو الخاص به، فانظر وانتظر جودوك المفقود.

ربما فهمت عزيزي القارئ القصد من ذكر صمويل بيكيت، واستحضار مسرحيته في انتظار جودو، الذي يخصنا وينقصنا، ونحتاج إليه لينقذنا من هذا الضلال. مع استمرار الصرخة وتخلقها واستمرارها نحتاج خلاصا أبديا إلى دار القرار، كما قال الله تعالى: "يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ"، أودعك قارئي، وألتقي معك في حوار آخر، لا أعرف متى؟ ولا أعرف الموضوع، ولكن أعدك أننا سنتحاور مرة أخرى. كل ضيق سيزول، وكل مضيقة إلى انتهاء، منحنا الله القدرة لنعيش السلام، والضحك هو السبيل الوحيد لتحقيق هذا السلام.

8

مأساة الجامعة

الأخلاق سمة الفاشلين والضعفاء، هذه هي خلاصة الجامعة، ترى فيها كل شيء، لم تعد الحرم الجامعي الذي كنا نسمع عنه، بل أضحت مقبرة لإقبار الجهل في عقول الطلبة، وترسيخ السلطوية فيهم، كنت أتجول مع صديقي سعيد بالكلية بعد حصة مليئة بالذاتية مع أستاذ لا أذكر اسمه، يلحن في كلامه حتى في الحديث عن نفسه، وما بالك في شرح الدرس وبسطه، هناك أساتذة يجبرونك على الصمت والحوقلة، وأساتذة تتمنى لو دامت حصصهم سنوات عدة. أثناء تجولنا في الساحة، رأينا تجمعات طلابية تغرق في الضحك واللامبالاة، طلاب بأشكال متنوعة لا تكاد تحدد جنسهم، ما لم تبحث في بطاقتهم الوطنية، وطالبات كأنهن في عرس ليلي، أو دار ملاهٍ، يصبغن وجوههن بألوان تزيدهن بخاسة ووقاحة، لا ندري أحقا نحن في حرم جامعي، أم ملهى جامعي؟ منظر مرعب ومفزع، أصبحت فيه الكلية ملجأ مريحا للمتعة، ومشربا لأحاديث فارغة، وتجمعات تعرف ما تفعله بالوقت، وبينما كنا نظن أن الجامعة كانت مفزعا نفزع إليه، لأخذ العلم وتعلم القيم، إلا أنها في الحقيقة مزرعة الحيوان، تنتج بقرا متشابها ألوانه، يأكل من أعشاب الجهل، ويُسرح في حظيرة الدولة كما تشاء، ويمسي المركب الثقافي الذي يتحكم فينا ضائعا، ومبنيا على الهزل والتفاهة.

الجامعة التي نبني فيها أحلامنا، أصبحت الآن مدخلا لقتلها ومخرجا للفتك بها، ونحن نتمشى قلت للصديق: أترى يا سعيد ما نحن فيه؟ أجئنا

لطلب العلم أم لمدينة الملاهي؟ هؤلاء طلبة ما زالوا يعبثون بوقتهم، ويظنون أن الحياة ستبتسم لهم بمجرد الحصول على الإجازة، يعتبرون أن الاستمتاع ضرورة إنسانية، سيعلمون حين ترمي بهم الأيام إلى العطالة، أنهم سيكونون عاطلين عن كل شيء، عبثا بما يفعلونه الآن، يمرحون ويلعبون ولا يحملون مسؤولية، ويأتون أيام الامتحانات يشتكون ويتباكون، ويحمّلون اللومة للأساتذة، وللطلبة المتملقين، ولعارضات الأزياء، طلبتنا اليوم همهم الوحيد الشكاية والتباكي.

حدثني سعيد بنبرة فيها حسرة، فقال: دعهم يلعبون ويتمتعون، فنحن لا نملك سوى الحرث عن أنفسنا، لنخرج من هذه الضلالة، ونبحث عن عمل يخول لنا الاستمتاع بهذه الحياة اللعينة، فهؤلاء الطلبة يجعلون فخر أمهاتهم وأبائهم أمام الناس عبثا، ويقرون بأن مصروف الآباء عنهم دائم، والحياة الميسورة في هذه الفترة دائمة، الحياة الطلابية التي كانت مجدا ويتباهى بها الناس، صارت اليوم حياة عبثية، للفاشلين والضائعين والعاجزين، أما نحن الذين جئنا من أرض جرداء عفراء مقتاء فالله لنا، والحزن لنا واليأس لنا، فنطلب الله أن يفرغ علينا صبرا، فلم نعد قادرين على مجابهة التفاهة التي نسبح فيها، قد استيقنا يا نديم منذ مدة طويلة أن أخذ الحياة على محمل يجعل يخلق عنفا في الدماغ، وأنت تعلم كيف تحدث أحمد المديني عن هذا العنف، وكيف صوره، لا أخاف عليك فأنت قارئ جيد.

كان ردي عليه بنبرة ميؤوسة، فقلت: لست قارئا مثلك يا سعيد، أنا مجرد مبتدئ، واستدركت على قوله، بقولي، وأنت تعلم أيضا أيها الصديق، أن الحياة مجرد حفلة تفاهة، لا يصلح معها سوى العبث كما

يفعل هؤلاء الطلبة، لا همّ لهم سوى الضحك والدعابة، يذكرني هذا يا صديقي بقول كونديرا: ""التفاهة، إنها تحت نور أسطع وأكثر كشفا، التفاهة يا صديقي هي جوهر الوجود، إنها معنا على الدوام في كل مكان، إنها حاضرة حتى في المكان الذي لا يرغب أحد برؤيتها فيه، في الفظائع، في المعارك الدامية، في أسوأ المصائب". تذكر هذا يا سعيد جيدا، فالتفاهة تسكننا وتعبث معنا، أيجدر بنا أن نغير نظرتنا نحو الحياة؟ لا نقدر على فعل هذا، كُتب علينا الحزن أياما معدودات، وأحل لنا كل ما في الحياة إلى أن يأتي أمر لا يُرد.

بعدها ذهبنا للمكتبة، لنقرأ شيئا من شعر أبي العلاء المعري، الذي لازمته منذ فترة الإجازة، فشعره يؤكد لي عبثية الحياة، وضجرها، ومأساتها، حينما أقرأ خطابه الشعري، أتذكر مباشرة ما يتحدث عنه الروماني سيوران في "لو كان آدم سعيدا" و"مثالب الولادة"، فهو يعتبر الوجود جسرا نعبر منه كعبيد، ويذكر أننا أجبرنا على المجيء لهذه الحياة، يعجبني يأسه كثيرا، كله متعلق بما يقوله رسول التشاؤم جياكوميو ليوباردي، الذي عاش حياة منعزلة ورهيبة، وقد نعيش المصير نفسه، العجب لهؤلاء السعداء في العالم، طبعا لا يملكون قلبا ليصلوا لحد اليأس، وعجبا للطلاب المرجلين والطالبات الميؤوسات، سنسمع قدرهم ومآلهم مستقبلا، سيبحثون عن حل للخروج من المغرب الحبيب، الذي لا يرحم الضعفاء مثلهم، سيظلون يغردون في مواقع التواصل الافتراضي أن الدولة لم توفر لهم مناصب الشغل، ولقد كانوا سلفا يتابهون ويتلاسنون مرحا وشبقا كأنهم في نعيم الجنة. نحن اليائسون العابثون الضائعون الشامتون النائمون، في مسرحية مأسوية على أنغام سمفونية لودفيج فان

بيتهوفن الخالد، الذي وجد في الموسيقى جودو الخاص به، لقد أنقذه من مأساته.

سألت سعيد في تلك اللحظة عن صدفة عجيبة جاءت في سياق الحديث عن بيتهوفن، وهي أن الذين يحملون عاهة مستديمة، في هذه الحياة، أصبحوا خالدين، بيتهوفن فقد سمعه في سن الشباب، وصار من أشهر المؤلفين الموسيقيين، تجد سمفونياته واوكستراه في كل مكان، فقد سمعه ويسمع صخب العالم، ترى المعري كيف صور الحياة وكان من العميان، طه حسين الحبيب إلى قلبك يا سعيد، خلّف آثارا أدبية ونقدية تصنف ضمن الآداب العالمية، ولن أحدثك عن لويس خورخي بورخيس العجيب، الشهير بلقب الأعمى، الذي يمارس السرد بألعاب قرائية تأويلية، السرد عنده لعب تأويلي خلاّق.

وأنا أتحدث قال سعيد: وهناك هوميروس صاحب الأوديسة، والشاعر الإنجليزي جون ميلتون، هم كثيرون يا صديقي، أما نحن المبصرون المقمعون فلم نصنع شيئا، تكفينا التعاسة التي تصرخ في وجوهنا، والمسخ الجامعي الذي نطلب فيه العلم، دعنا من هذه التشاؤمية نديم، ولنمرح قرائيا.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا، جلسنا في خزانة الكلية، عفوا ملهى الكلية، وأردنا أن نستغل الوقت المتبقي للحصة المسائية مع الساعة الثالثة مساء في القراءة، آخذت أقرأ في ديوان المعري، وأخذ سعيد يقرأ رواية الحركة لعبد الإله بلقزيز، وكنا سندرس مساءً مادة تحليل الخطابات، مع أستاذ وجدتُ محاضراته لدى طالب من طلبة الإجازة درس عنده قديما، ويدرسها لنا الآن، دون تغيير وتحيين، فالأتعس أن تحلل

خطابات دون تحلية محاضراتك وتجديدها، فقد مضت عليها السنون، والأسف أن الأجيال القادمة ستلتهم المحاضرات نفسها، وهذا مرض من أمراض الجامعة، قطف الأستاذ لجزء ناضج من أطروحته وتدريسها للطلبة مدة عشر سنوات، مرض مؤلم حقا، ولن أتحدث عن مرض الكسل والعجز الذي أصاب مثل هؤلاء الأساتيذ، الذين جعلتهم حرية التعليم الخالي، عفوا العالي يسخرون من الطلبة، وجعلهم المال فيه راحة ميسورة، فظنوا أنهم أبديون في الحياة، لا حياء حينما تراهم يتحدثون عن زمانهم وماضيهم، وجدّهم واجتهادهم، بأنهم كانوا يقرأون يوما كاملا دون كلل وملل، ولا يفترقون مع الكتب، والعجيب أن بعضهم عندنا في الدراسات العربية، يكذب بأنه كان يسهر مع سيبويه والكسائي والمكودي وابن كيران، ويحفظ المعلقات وأشهر القصائد، ويقرأ المبرد والجاحظ، وابن قتيبة، وهذا كله لا محل له من الوجود، فأحاديثه في الفصل تصيبك بالقلق، والفزع، ولا تحس بأنه قرأ شيئا مما ذكرت، نظل مندهشين مما يقولون، وحينما نكتشف الحقيقة يكون ذلك ضحكا ودعابة لا متناهية بيننا، الإله الجديد أمطرهم بالمال، ولا غرض من الجد والاجتهاد وإيصال المعرفة لطلبة لا يقرأون صفحة في اليوم كما يقولون ويدّعون، أَنِعم بهم من أساتذة يحفرون عقولهم بالقراءة الكاذبة، ويستفزوننا بكلام هاوٍ ممنوع من التسريط، وأقصد التصريف.

أثناء قراءة الديوان توقفت عند قول أبي العلاء المعري:

لا تَلْبَسْ الدنيا فإن لِبَاسَهَا سُقم وعَرَّ الجِسْمَ مِنْ أَثْوابِهَا

هذا شاعر أعمى فأبصر أسرار الدنيا ومقاماتها، لباسها ضيم وألم، ومقت، أصلا يا معرة فالحياة يئست منا ورفضتنا، ولا تريدنا، حتى نصل

بعدُ لكي نلبسها، وأنا أواصل قراءة الديوان فإنني أتأمل كل بيت أقرأه، وأنظر فيه وأتأوله، وأقرنه بفكرة قد يريدها سيوران، أجد أبياته خصبة وخصيبة تحوي معاني ودلالاتٍ لا محدودة، تقودني إلى عالم آخر من التأملات، التي يتباهى بها طلبة الفلسفة أمامنا، لا يعرفون أننا نملك أدباء فلاسفة، يتأملون في الحياة والوجود ووحدة الوجود، والمطلق ومسائل الطبيعة وغيرها، لا يعرفون ابن عربي والحلاج، فهم يمتلكون سرًا أدبيا لفهم الوجود.

بينما سعيد غارق في الرواية، أخبرني بأنه قريب من انهائها، فأخبرته مزاحا بأنني أنتظر خلاصة موجزة عنها، فقال: تريدون أن تكون جميع الأشياء محضرة لكم في طبق، اِنسَ الخلاصة وما شابه ذلك يا نديم، اقرأ الرواية بنفسك فستفيدك كثيرا، فالقراءة مرتعنا ومأونا الوحيد، ففيها جميع حاجاتنا، والآن دعني أنهي الرواية، فحصة تحليل الخطابات لم يتبق لها سوى ساعة، حركت رأسي مبتسما، وقلت لا يمكنك إطلاقا يا سعيد إدراك كل أحداث الرواية، ولذلك لن أقبل خلاصتك حتى لو أردت تقديمها، فالرواية محصنة برداءة النسيان كما يقول كونديرا، "الرواية قصر محصن برداءة النسيان"، قصر تستطيع أن تتذكر فيه القليل من الأحداث، وأما الباقي فيضيع، بفعل النسيان، الحيلة التي يمكن أن تمتاز بها الرواية لكي تجذب القارئ هي النسيان، أن تدخله إلى قصرها البهي الغني المشوق، فتجعله ينسى ما قرأ، فحينما أقرأ للأديب الروسي دوستويفسكي، ينبغي أن آخذ قلما وورقة، لأسجل شخصياتها التي تفوق المئة، فحتما منذ الصفحات الأولى ستنبهر بكم هائل من الشخصيات، وسيكون النسيان هو حليفك، ولا يهمنا هذا، بقدر ما نتمنى أن نكون قرّاء جيدين، لأننا نقضي وقتنا حبيسين مع الكتاب، بعدما رفض العالم

الاهتمام بنا، هكذا يقول صاحب مقبرة الكتب، كارلوس زافون، طردتنا بشاعة الحياة من عالم بئيس إلى عالم خصيب متناسل، عالم القراءة الأبدي.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة، فذهبنا إلى حصة تحليل الخطابات، فمرت متصدعة تشقق الرأس، يحدثنا عن دور الحجاج في فهم الخطاب، ومسخه، إني لا أجد متعة في توظيف قوالب جاهزة على النصوص والخطابات، فطبعا هي بمثابة قوالب جاهزة، تمسخ الخطابات، فنضيع حياتنا في لا شيء، والمؤسف هو الحماس الذي يشعر به الطلبة تجاه هذه الأشياء، وكأن فهم الخطاب الحجاجي وما تعالق معه، سيجعلني طالبا بارعا، نكذب على أنفسنا، ونكذب على النصوص، كنت أمازح الصديق، فأقول له ما الفائدة من فهم خطبة الحجاج بن يوسف؟ وما الفائدة من فهم خطاب ترامب؟ وما الغاية من مضيعة الوقت في البحث عن الأنساق التي تضمرها رسائل ابن القرامي؟ مجرد هراء وثرثرة صاخبة، وسعيد كعادته يرد: دعنا نقرأ لنبحث عن مستقبلنا ونرسم طريقا مُشرّعا لأحلامنا، أما هذه الأشياء فلا قيمة لها بتاتا، عبارات مضخمة، من قبيل إن الحجاج ومعاوية وابن العميد وظفوا آليات حجاجية يبتغون من ورائها دلالات ومقاصد لا يفهمها إلا المحلل الحاذق، ولا تنس أن تقلب الذال زايا، وكأنهم عاشروهم وعاشوا معهم ليقولوا: إنهم وظفوا واستعانوا بكذا وكذا واستطاعوا أن يؤثروا ويستميلوا الناس. المعتوهون من ينصبون أنفسهم محللين لفهم خطابات أناس ماتوا، وهم لم يفهموا أنفسهم قط، ولم يدركوا معنى حياتهم، نتباهى بأننا نجيد إجادة تامة فهم خطاب قاله شخص توفي خلال القرن الثالث الهجري، لأناس ماتوا وأكل عليهم الدهر وشرب، هذا هو العبث بروحه.

التأنق بهذه الأشياء من أجل التألق لا يؤدي إلا إلى اللاشيء، هذه الآليات التي نعتز بها نحن أهل الدراسات العربية، وضعها أصحابها لفهم مستجدات حاضرهم، لا إلى العودة من أجل فهم القعقاع والتأكيد على فصاحة الحجاج، ومدى استطاعة طارق بن زياد على إقناع جنوده. في أحايين كثيرة نتأكد أن المسائل التي نعتبرها جادة مسائل تغرق في التفاهة، وتشرب من مشرب التفاهة، إن العالم أصلا في حفلة تفاهة فظيعة.

مرت الحصة كما هو معهود، كلام محمول على كلام فقط، وثرثرة فوق الأرض، وضمير مهني متزمت، في دراسة محاضرات حفظتها جذران الكلية، وأقرت بأنها بمثابة مخطوط أسطوري توجد فيه بركة الأولياء، لا تؤاخذني عزيزي القارئ هذا ما بدا لي حقيقة، بعد انتهاء الحصة خرجنا مع الساعة السادسة مساء، وجلسنا في الساحة قليلا تداولنا بعض النقاشات مع الطلبة، وقمنا بضحكات استهزائية حيث أصبحنا قادرين على فهم بواطن النصوص، وفي تلك اللحظة أحسست بأن بطوننا تصرخ بالجوع، وسرعان ما أنهيت كلامي مع الطلبة وانعزلت أفتش في هاتفي، أبحث لعلي أجد اتصالا ما، سعيد استمر في الحديث مع الطلبة، يسألونه عن بعض الكتب التراثية، وأمهات المصادر، ويطلبون منه أن يراجع معهم مضمون حصة تحليل الخطابات، كان طالبا مجدا ومنفتحا، عكسي أنا مجد ولكن صامت لا أفتح قلبي لأحد.

سئمت من الانتظار، والصديق يواصل أحاديثه مع الطلبة، وتركني وحدي واقفا، وبينما أنا أنتظر نادتني ندى، أهلا أخي نديم، وبعد ندائها رأيتها قادمة نحوي، فاضطربت قليلا، واعتدلت في الوقفة حينما اقتربت أكثر، رحبت بها، وأنا أشعر بخجل، لأنني أجد الحرج في افتتاح موضوع مع

البنات، ولا أقود نفسي نحو مسابقة الحديث معهن، لأنهن يحملن وعيا جمعيا وفكرا مشتركا، بأننا نحن الطلاب نلهث نحوهن، ونصدع بحرق أنفسنا، للبحث عن طريقة للدخول معهن في صداقة دائمة وحديث لا منقطع، وبأننا نشتاق للبحث عن أحاديث عاطفية، نملأ بها الفراغ الذي يثقبنا وينخرنا، إنهن يضعن أنفسهن في صورة مثالية غير مستحقة، يحسبن أن جميع الذكور عميان، الذين يحلمون في أوقات فراغهم، بفتاة تمتلك قواما معتدلة، ولها حقها من الجمال والجلال، إنهن يفخرن بالأنوثة المزيفة، وبالفتحتين المشوهتين، التي ينساق نحوهن ذكر أعمى وفحل جرته الفحولة نحو متعة زائلة، لا أشبه هؤلاء، ولست متجذرا من شجرة تبتغي العناق والوصل والشوق، إني أبحث عن مخلص يفهم عالمي الداخلي، ويبعثني من جديد، أيها الرجال دعوهن يفخرن بما يملكن، فما نريد جنسا أنثويا يفخر بمظهره الداخلي، وبفتحتين سبتا فيكم الهلع والخوف والكبت، وابحثوا عن منقذ ينقذكم من الضلالة.

وحتى لا أسوق حديثا طويلا متشائما، أمر إلى حديثي مع ندى، فقد تناقشنا في بعض أمور الدراسة فقط، وأخبرتني بأن أنضم إلى الطلبة، قلت لها: سنذهب الآن، أنتظر صديقي فقط، وتساءلتْ هل توجد مشكلة ما لك معنا؟ قلت في خاطري، ماذا تريد هذه المعتوهة، لم ينقصني سواها، استدركت مجيبا، لا مشكلة لي معكم أختي ندى، كل ما في الأمر أنني لست اجتماعيا.

واستوقفت نفسي قليلا، أقول: لن أتكلف في وصفها كثيرا، فذلك أمر لا يحرك في دواخلي شيئا، ولكن أقول أني أرى في عينيها نظرة براءة، وثغرا باسما، ووجها مشرقا، يا للهول، أظن أنني متناقض أشد التناقض،

فلست مستعدا لهذه العبارات، ولا أجيد الحديث مع الفتيات أصلا، وحضرني لما تأملتها وأمعنت فيها النظر، قول الشاعر العربي:

هي البدر إلا أن فيها لحسنها... رقائق ليست في هلال ولا بكر

وتنظر في وجه القبيح بحسنها... فتكسوه حسناً باقياً آخر الدهر

وعم صمت غريب أثناء حديثنا، وهوت نفسي وشردت، فقالت ندى: ما بك شردت، كنت أسألك عن عدم مجالستك لنا، ألديك مشكلة ما مع أحدهم، أخبرتها بأنّ الأمر بعيد عن ظنها، وقريب من عدم الرغبة فقط، لا تعلم أنني راكمت خيبات وإخفاقات نجوت منها سليما، نجوت من أرض زاكورة المهلوكة. لقد حمدتْ ندى الله بعدم وجود مشكلة مع الطلبة، وبدأت تشكرني بعبارات استهوائية، تقول فيها: طالب باحث وجاد، تمتلك لغة فصيحة، ويظهر أنك إنسان خلوق، لكنك تبدي أن لك موقفا من الطالبات، أو الجنس اللطيف عموما. لحظة وقوفها أمامي لحظة تأملية، كأن يداي تحولتا إلى جناحين، لقد سحرتني بألفاظها وجمالها، وأدهشتني ظرافتها، وكأني مصاب بالهيام وتمكن في قلبي الغرام، وهبت جمال القمر، سارق ضوء الشمس، وسارقة وحدتي.

مازجت الضحكة ببعض السخف، فشكرتها على لطافتها وكلامها الجميل، وبعدها استغربت من مجاملتها، التي لم أجد مبررا قصديا لكي أعتبرها مجاملة بريئة، أعدت عليها المجاملة نفسها، وفجأة ولحسن الحظ جاء سعيد لينقذني منها، لانتهاء كلامنا وانقضائه، وعدم احترافي لطرق موضوعات جديدة معها، إذا تجاوزنا الدراسة، ودعتها، وخرجنا من الكلية، وذهبنا إلى درب الرحاب لندلل المعدة قليلا، ونحن نسير في الطريق، استغللت الفرصة لمعرفة ما تدور حوله أحداث الحركة، سألت

الصديق عن ذلك، فأجاب ضاحكا والله لم أتذكر شيئا سوى أنها رواية تعود بنا إلى أحداث حركة عشرين فبراير، وأحداث الربيع العربي، وما أتذكره جيدا هو قول بلقزيز: "إن السياسيين جميعا من نسل الشيطان، يحتالون على الناس ويسرقون أصواتهم في الانتخابات، بعد أن يصدقهم هؤلاء.لكي يغتنوا".

وضعت يدي على كتفه فقلت: حقا يا صديقي لا تذكرني بهم، فالسياسيون وضعوا أنفسهم على عرش الشيطان، حثالة الضمير تنخر في أجسادهم، ولا يستحقون أن نطيل الحديث عنهم، فقط أخبرك أنني قرأت الحركة لعبد الإله بلقزيز سابقا، وقرأت سراديبه ولياليه، وأنصحك بقراءتها، واحذر فإن الرواية قصر محصن برداءة النسيان.

أكلنا ما تيسر أكله بمنطقة الرحاب في مدينة النصر، وشبعنا وحمدنا الله، وأنا أكل تذكرت نظرات ندى، لم تكن بريئة حقا، هي تخفي شيئا ما، وتضمر في قلبها سرا ما، أو ربما أنا مخطئ لأنني لا أفهم في خبايا النساء وعالم الطالبات شيئا، قد أكون مخطئا لعدم إلفي التعامل مع الفنون الجميلة بنوع من اللطافة، أنا قاس جدا، شردت قليلا، فانتبه سعيد لذلك، ووجدته قد أنهى طبق الفاصوليا الذي نأكله في أحسن ظروفنا، وأنا لم أصل بعد إلى انهاء النصف من اللوبيا، استغرب سعيد قائلا: أنت تأكل كالفريسة ما الذي أصابك؟ هل أنت مريض؟ هل عدت إلى تشاؤمك مرة أخرى؟ ألديك مشكلة ما؟ أخبرني أرجوك، لا تجعل دماغي مشوشا، أنا صديقك، حَزن لحالي كثيرا. لا يعلم سعيد أن تلك الشعلة المضيئة داخل قلب الإنسان، وجدت المكان الذي ستستضاء فيه، وتفاجأت من شدة إحساس سعيد، بقوله: أضئ شمعتك المرحة، وأخرجها

إلى الوجود، لعلها تلتقي بمن يشبهك، وتتصادف بمن يحمل نفس همومك، أضئ شمعة قلبك ليستضيء بها العابرون، لا تجعل أحزانك سلطان حياتك. كم هو جميل أن تعاشر أمثال سعيد، رغم أنه غريب عني، إلا أنه يقف معك وقفة رجل، ليس مثل الذي يقطن معك في البلدة نفسها، وينغص عليك أيامك، ويكدرها، فلا مقدرة له على رؤيتك، يحسدك على أبسط الأشياء، وأعلمُ ما حدث لي مع أحمد في العهد، فما فعله معي لن يفعله أقسى أعدائي وأشدهم، بئس الوجوه الضاحكة نفاقا، صدق المعري قائلا:

والناس خيرهم كشرهم وتساوت النعرات والدّبر

إن أناس أهل البلدة يحقدون عليك، وعلى إنجازاتك، تحسبهم لطفاء وظرفاء، فتجد عكس ذلك، وتظنهم يبغون لك الخير، ولكن يحملون عليك حقدا شديدا، ودّوا لو أعدموك، ولو سمح الله بقتل البشر، لأعدموك من أول نظرة، وخاصة بعض الطلبة، أمثال أحمد، وتصلنا أخبارهم الخبيثة مع البنات، يقضون أياما في الخواء فيمصمصون شفاههم فقط، ويعضونها، ويشدون رأسهم حسدا، لأنك كنت تسهر الليالي لتحصل المعرفة، وأنك تنجح في اجتياز فصولك في الدورة العادية.

اطمأن سعيد بعد أن علم بأنني بخير، وأما أنا فنسيت أمر ندى. عاطلون عن الحياة، ويائسون منها، لم ينقصنا سوى الحب، الحب لن يبحث لنا عن الخبز، أتم سعيد طبقي، وعدنا إلى البيت، الذي لا يصلح إلا للنوم وإعداد العروض، دخلنا وصلينا العشاء، وتذكرنا عرض أستاذ مادة الأدب، الذي كلفنا بإنجاز دراسة عن كتابه، حيث أجبرنا بشرائه وألح على فعل ذلك، ونحن لا نملك ما يكفينا للوجبات الثلاث في اليوم، والمعضلة

أنه كتاب مشرد لا قيمة له، يحمل قولا على قول، ومليء بالأخطاء النحوية، وموضوعاته مقعرة الشكل وخاوية المضمون، عار عليهم أن يأكلوا من أكتاف الطلبة، بإرغامهم على شراء كتبهم، لجمع مال يضيعونه إما في الطالبات الليليات، أو لشراء سيارة يتباهون بها أمام الملأ، والأجدر أنهم إذا كانوا قديما يطلبون العلم بشروطه وأسسه، ومصاعبه ومتاعبه ومهلكاته، فسيعرفون ظروفنا، ولن يلزمونا على فرض كتبهم البخيسة علينا، لو كانوا يعرفون ما نحن فيه ما فرضوا علينا طبع ورقة، والتهديد الضمني بأن ذلك سيقرر في الامتحان.

ونحن ننجز قراءة حول الكتاب، اشمأز سعيد من موضوعاته، وأسلوبه الرديء، وأخطائه الفظيعة، حدثني قائلا: الحياة عالم بئيس، نجد بأسها مغلفا في كل الأمكنة، ماذا يعني أن تُجْبَرَ على شراء كتابِ أستاذٍ، لا سبب يبرر شراءه سوى أنه أستاذك الذي كتبه وألفه، ويظن نفسه شهما بيننا، إلا أنه عكس ذلك، فإنه يحط من قيمته.

تأففت ورميت الكتاب جانبا، لأنه يستفزنا بما فيه من مباحث مأخوذة من دكتوراه جافة، ولما رأيت الغضب يتلاشى في دواخلي، فقد طبقت قول محمود شاكر: "لكل كتاب فهرسته، فأقرأ فهرست الكتاب"، اطلعنا نحن الاثنان على فهرس الكتاب، وبدأنا الكتابة عنه، ولم تمر ساعة حتى أنهينا ذلك، فرقناه في الحاسوب، بعد تقسيم العمل بيننا، أخذنا نتحدث عن طريقة الإلقاء غدا، لأننا بهذا التحضير نبهر الجميع، طلبةً وأساتذة، وكنا نقوم بهذا في مختلف المواد، لا مشكل يتعقبنا، فَهَمُّنا الوحيد هو التحصيل، لنضمن مستقبلا نحصل به على طرف الخبز كما يقول المثل المغربي، تعبنا كثيرا، والساعة متأخرة، وأردنا الخلود إلى النوم،

ففاجأني سعيد بقول هزلي، أرى أن البنات بدأن يتطايرن عليك، إنهن العاشقات يا نديم، جميلة الفصل ندى وقفت معك اليوم بعد حصة تحليل الخطابات، لست أدري هل تريد أن تخفف عنك أتعابك، أم أن الامتحانات على الأبواب، وتريد منك أن تكون أستاذها لأيام معدودات، فينتهي ذلك ويتجدد في أوقات الامتحان مرة أخرى؟

ضحكتُ من قوله، مرددا عبثا عبثا تحاول يا سعيد، لا حب لبئيس مثلي، ولا ولهَ ولا عشق، سألتني ندى فقط عن سر الابتعاد عن تجمعات طلبة قسمنا، أعاد علي ما قلت هزلا، فقال: الأيام بيننا كاشفة، أظن أن ندى سترويك وستغير نظرتك التشاؤمية هذه، امنحها فرصة، وافتح لها قلبك القاسي، إن النساء يحتجن إلى الاهتمام والدلال، فيولّد فيهن كل شيء، قلت صهٍ ومهٍ يا سعيد، فلا نية لي في إقامة علاقة مع ندى أو غيرها، فسوق النساء مليء بالأشواك، ولا نشتري منه سوى الضجر والعجيج، تبيع لهن سلامك وهدوءك فيقابل بكثرة الضجر، نم يا سعيد فسنستيقظ باكرا، وسنصبح على مادة الأدب، ودعك من ندى، فتلك لمحة أخرى، وعالم آخر، لا نحبذ أن نعرض تفاصيله الشيطانية في سهراتنا الليلية.

9

التسلط

استيقظنا باكرا كعادتنا، متجهين إلى المكان الملعون، الذي يتركب فيه الجهل، وتتعالى فيه أصوات أشباه المثقفين والأساتذة، كانت حصة الأدب، ولدينا فيها عرض حول كتاب الأستاذ، "الأدب العربي القديم: وتنبؤات الحداثة"، مر العرض في نصف ساعة، وبقيت ساعتان ونصف للملل والاستعلائية والذاتية، أطال الأستاذ القول، بأننا كنا موفقين في فهم الكتاب، وتحقيق مطالبه والوصول إلى أفكاره، وأريد من هذا العرض أن يكون مقالا، بعد إدخال بعض التعديلات، وإن فكرتم في نشره، فسأتكلف بذلك، وبابتسامة حارقة، وافقنا على أساس أن الكتاب سيتنبأ بمستقبلنا الحداثي للأدب، كما تنبأ بمستقبل وحداثة طبقات فحول الشعراء، وكما يقول طالب معنا كثير المزحة والطرفة والنكتة، طبقات وحوش الشعراء، ما الغريب فقد يتنبؤون بكوارث العالم، ومأساته، هذه هي التنبؤات الصادقة، وما سوى ذلك فمرج وعجيج وجعجعة لا طحين فيها.

المستقبل الزاهر للإنسانية يوجد في مخيلة الموتى، أما الأحياء فلا حق لهم إلا استطلاع كارثة مستقبلية، حتى لا أخرج عن جو الفصل، فقد شكرنا الطلبة بما قدمنا لهم، وما أثارني هو تدخل ندى، كانت مذهلة، لم تكن تشارك وتتدخل في الفصل أبدا، تحدثت بلغة جيدة، أي صدفة هذه؟ لماذا تدخلت في عرضنا فقط دون عروض أخرى؟ ربما لتثير انتباهي وتحظى بصداقتي، علي أي، هذا مجرد هذيان، لا شأن لي في تدخلها، ذلك

حقها، أنهينا التدخلات، وبدأ أستاذنا يسرد علينا إنجازاته الأسطورية، والتاريخية والفخرية، والخيالية، ولما أوشكت الحصة على الانتهاء، قدم الأستاذ عرضا آخر لإنجازه في كتاب لأستاذ له معه زمالة التسويق الكتابي، فأوصى الطلبة بأنه كتاب هام، ومطالبون به في الامتحان، وسيفيدهم في آفاق المادة، لإنجاز بحث في مجال الآدب، لا ندري أحشرنا في هذه الكلية للبحث عن منافذ المعرفة، أو للمتاجرة في الكتب، حقا نحن معذبو الأرض، صرختْ في وجهنا الدنيا، ورمتنا في أرض غير قادرة على حمل أحزاننا، أما الأفراح فقد وقّعْنا عليها شهادة الوفاة، ونسيناها، ونسينا الإحساس بها، أيعقل أن يتفق الأساتذة فيما بينهم ليغتنوا من جيوبنا التي تحلف الله على وحدتها، وعلى الثقب الذي فيها، لا حقارة أشد من هاته؟ أيها الآتون إلى الكلية، اكسروا تلك المثالية، ولا تتعلقوا بها أشدّ تعلق، واعلموا أنكم بعد البكالوريا، ستحشرون في موكب من المآسي، ولكن رغم ذلك ستتمسكون بقدراتكم، وبأهدافكم، لا أقول هذا الكلام لأرفع من معنوياتكم، أو أنني خبير في التنمية الذاتية، بل لأنني أحسبكم ستطلبون العلم لوحدكم، دون أن تعولوا عليهم كثيرا، فما لهم معرفة ولا هم يحزنون، القلة القليلة منهم التي تخلصت من العدو الداخلي، وحافظت على نقاء ضميرها المهني، فمنهم المجتهدون والمنكمشون والمطففون والمقترون.

انتهت الحصة الصباحية، وتجمع الطلبة كعادتهم في الساحة يثرثرون ويضحكون، وانزويت وحيدا، جالسا أتأمل صخب الكلية وضجرها، وسعيد غارق في الضحك مع طلبة فصلنا، وفجأة رأيت ندى قادمة نحوي، قلت: أي مصيبة أن تأتيك فتاة جميلة ولا تعرف مفاتيح الحديث معها، وأنت أصلا لا راحة لك للحديث مع شخص ما، غالبا ستسألني عن مسائل الدراسة ومتعالقاتها. سلمت عليّ، وجلست دون أخذ

إذن، بادرتني قائلة: لقد أعجبت بعرضكما يا نديم، ليس من عادتي المشاركة، ولكن عرضكما وإن كان عن كتاب لا قيمة له، فقد كنتما متميزين، تمنيت لو كنت معكما، شكرتها، وقلت لها بأن انضمامها إلينا شرف عظيم، ضحكت وبدا بياض أسنانها مشرقا، إلا أنني لم أرع أي اهتمام لأبادلها الضحكات نفسها، ظلت تنظر إليّ وأنا أبلع ريقي ولا أعرف ماذا سأقول، تمنيت لو يأتي سعيد، ويخلصني منها، عمّ الصمت قليلا، وعيناها لا تفارقان وجهي، أي خجل أصيبت به في تلك اللحظة، قالت: بالمناسبة يا نديم فاسمك جميل جدا، كنت أجد حرجا في مخاطبة العقلية الذكورية المتزمتة، التي لا تناقش إلا في المتعة، وفي المفاضلة بين الأنثوية والذكورية، وجدتك مختلفا عنهم، استهوتني وحدتك يا نديم، وأريد أن أكتشف عالمك الغريب، أراقبك فأجدك يائسا، وكأنك تنتظر قدوم شيء ما، لعلي أكون محظوظة لأناقش معك أفكار النسوية البعدية، لأنني مهووسة بالآدب النسوي. لم تكد تنهي إطراءها اللامتناهي حتى التحق بنا سعيد، فلاطفنا ومازحنا بقوله: أركما معا هاته الأيام، ربما عشيقان جديدان في الفصل، أبلسته بسرعة، قلت: لا تهذ يا صديقي كنا نتحدث في بعض القضايا المرتبطة بالنسوية وما بعدها، فندى لم تأت إلى الحريم الجامعي، حتى تنشئ معي علاقة عشق، بل جاءت إلى الحرم الجامعي، تبسمت ندى ونطقت بعبارة فيها حياء أترككما دون الأخذ من وقتكما، ربما تركتما كتابا لم تتماه بعد، مجدان في زمان الرخاء الطلابي، إلى اللقاء.

ذهبت عند صديقتها المحجبة آمنة، التي تنظر إلينا كلما جاءت ندى لتحدثنا، وإن كنت سأظلمها بحكم قيمة، فإن لها رأسا فارغا مغطى يحوي فراغا آخر، لعلها تفعل الأفاعيل وتأتي بالأعاجيب، ذهبتْ ندى وبدأت أتأكد بعد نقاشي معها أنها طالبة قارئة، تحب الصمت، الظاهر فيها أنها

صادقة وغير متلونة ويصعب التلاعب بها، فكما قالت في اللقاء التعريفي، فهي متأثرة بكتابات نوال السعداوي، وفاطمة المرنيسي ورضوى عاشور وأحلام مستغانمي، وأجاثا كريستي، وجاين أوستن، وتذكرني بشخصية رواية أوليف كيتدريج لإليزابيث ستروت، المتقلبة إلى صرامة ويأس وصبر وشدة، لا تدخل في تفاصيل الجميع، تسعى للبحث عن فهم أحق لحالتها وذاتها، أشترك معها هم القراءة، وسمة التشاؤم.

ألقى سعيد لباس الهزل والمزاح، وتحول مباشرة إلى إنسان مجد وعميق وصاحب عقل، فجرّني للذهاب إلى قضاء حاجته، كان يود قضاء مسألة إدارية بالكلية، عند السيدة المتسلطة آمال، وعباس الرجل المعذب، إدارة تذهب إليها لطلب وثيقة أو لإنجاز شيء ما، فتندم حياتك كلها على الذهاب إليها، الإدارة عندنا هي الوحيدة التي تعتبر أن الناس كلهم في إجازة ولا أشغال لديهم، لذلك تمنحهم بعض الراحة في الانتظار، مهمتهم المبجلة تضييع الوقت، وتأخير إنجاز الطلبات، يود سعيد أن يتقدم لمدرسة التعليم الخصوصي وأراد سحب أوراقه، لإعادة نسخها، وجعلها نسخا مطابقة للأصل، فذهبنا ونحن نلوك كلاما عن مآسينا وفي ضرورة حاجاتنا إلى عمل نساير به شدة المعيشة في هذه الحياة الملعونة.

لما وصلنا إلى الإدارة تحدثنا باحترام مع المتسلطة آمال، وأخبرناها بطلبنا، فبدأت بعملها الاحترافي، بتصدير الطلبة وتصنيمهم في مكان يطول فيه الانتظار، بعد معرفتها الطلب، قالت لسعيد املأ هذه الورقة وانتظر حتى يأتي النائب ليوقّع عليها، انتظرنا وطال الانتظار كثيرا، فرجع عندها سعيد ليخبرها بمرور نصف ساعة كاملة في لا شيء، ولدينا عمل آخر لقضائه، قال لها: رجاء سيدة آمال، اتصلي به، أو ليكلفك أنت

بالتوقيع، ونظن أن لا مشكلة في ذلك، وكعادتها، أقنعت سعيد بأن المسألة غير قانونية، والأمر غير مسموح به، قالت له: أريد أن أساعدك، ولكن أخشى أن يصل هذا إليه، فيتم توبيخي، أعلم أنك مشغول، اصبر قليلا فسيأتي، نفد صبر سعيد، قائلا أنا من نفد صبري يا آمال، الإدارة سميت إدارة لأنها تدير شؤون الناس وتيسرها، وتتعاون معهم على تلبية طلباتهم وقضاء حاجاتهم، إلا أننا نجد عكس هذا نجيء لأخذ وريقات فنسكن هنا كالمشردين، نسعاكم في لا شيء، بقي فقط أن نبني بيتا وننتظر السيد النائب ليحرك يده ثم نذهب، ونشكره وندعو له بالهداية، والمزيد من العطاء مع الطلبة.

المشتغلون في الإدارة هم آلات معطلة تعطل معها الآخرين، رمى سعيد الورقة غاضبا، فتدخل السيد عباس الرجل الضخم، المتشدق في كلامه، فتشندق فقال: احترم نفسك يا بني، أنت لست في حظيرة بقر، أنت في الكلية، أنتم جيل مالح، لا أخلاق ولا قيم، قلنا لك انتظر دقيقة وسيأتي النائب، لا تحرجونا على رفض طلباتكم، لما رأيت المنظر معكرا ومشوشا جئت، فقلت ما الذي حصل؟ أجاب سعيد، قال السيد عباس ننتظر دقيقة، فسيأتي النائب، ونحن انتظرنا حتى أهلكنا من الجلوس، الدقيقة عندهم ساعة، ربما أمست الإدارة تشتغل بتوقيت الإلهة ديمتير، في عالم الرذيلة والأموات والجحيم، هدأت من روع سعيد قليلا، فتحدثت مع عباس بأن المسألة عبثية والأمر غير محمود، فأنتم قمتم بواجبكم ولكن اللومة على النائب، الذي أخذ منصبين، ليترك الناس تتلوى وتنتظر في العراء.

خرجنا من الإدارة دون قضاء الحاجة، تبا لإدارتهم التي تدير رأسها عنا، سعيد غاضب وقلق، ربتت على كتفه، وهدأت من روعه. في هذا البلد الحبيب كتب علينا الشقاء، إننا سيزيفيون في أرض الخراب، المشتغلون في الجامعة أشربوا في قلوبهم سوء التدبير وانعدام الضمير، هؤلاء الإداريون همهم الوحيد أخذ المال فقط، فهو عقيدتهم وإيمانهم وشرفهم وكرامتهم، صدق الفيلسوف الذي نسيت اسمه لما قال بأن الإدارة لما دخلت إلى الجامعة عطلت كل شيء فيها، الأساتذة يعتذرون عن عدم المجيء للحصة بسبب اجتماع طارئ، سبحان الله كأنهم يخططون للحد من المنظمات الإرهابية، كثرة الاجتماعات فيما بينهم أكثر من الحصص التي ندرسها نحن، الإدارة عندنا شققت رؤوسنا بفعل الانتظار، صبرنا وما زلنا نصبر على هذا العبث والشؤم، حتى حينما نطلب دعما لإنجاز نشاط طلابي داخل الكلية، تأتي الإدارة لتعرقلنا ولتعكر علينا المزاج، وتفتح لغة مكرها بأن القانون لا يسمح بما أنتم فاعلون، أي قانون جعلهم يعترضون على الحياة المعرفية في الكلية؟ آمال وعباس والنائب، نماذج لما يحصل في جامعات أخرى، الإدارة وحدها كافية لتجعلك تسافر وترحل عن المغرب، وتهجره لبلد يسرك أن تشتغل فيه عامل نظافة.

ونحن نخرج من باب الكلية صادفنا آمنة المحجبة فُجاءة، حركت رأسها إشارة إلى السلام دون أن تتوقف لتحدثنا، فهمس سعيد بقوله: يا لها من معقدة، وكأنها اللؤلؤ والمرجان، تظن نفسها محصنة، وأمثالها يصنعن العجائب والفظائع وراء شاشة الهاتف، بأجساد فيسبوكية متعددة الحركات، لم تتكلم وكأن كلامها سيبعث فينا الأمل من جديد، وسيمحي معاناتنا في النصر، وينسينا همّ ما نحن فيه الآن، ضحكتُ من قوله، قلت: دعك منها فلها حرية الحديث مع من تشاء، لن نلزمها على

شيء، وأصلا لا ينقصنا سوى كلامها، فقد ضيعنا وقتنا ههنا مع الملعونين، ونريد فقط الذهاب إلى البيت، نصنع غذاء من البيض والطماطم، ونذهب إلى خزانة الكلية لنقرأ شيئا ما، ونستدرك ما ضاع من الوقت في هذه الحظيرة.

10

المنزع التقديسي

ذات يوم، مساء الجمعة، ذهبنا إلى المكتبة مع الساعة الثالثة بعد الزوال، لنطلع على بعض الأطاريح المنجزة حديثا في موضوع النقد القديم، كلفنا بها الأستاذ، لننظر في الموضوعات التي تم إنجازها، والطريقة التي أنجزت بها، باعتباره مشرفا عليها، فقد صدّع رأسنا في الحصة، وشقه، بقوله إن الأطروحات التي أشرفت عليها متميزة، ونالت حق الطبع، وأصحابها يدرسون في جامعات أخرى، وما أشاهده من البحوث اليوم غير لائق بمستوى البحث العلمي، وأطال القول بأن الأساتذة الآخرين في النقد الحديث والسرد واللسانيات، نجد أطروحاتهم التي أشرفوا عليها مسيئة للبحث العلمي، هذا أمر يشق على النفس، هكذا في جميع الحصص، الأستاذ يعتبر نفسه العالم في كل شيء، لم ندرس حصة إلا وقال فيها إن الأستاذ والدكتور فلان قد ذكرني في كتابه، واعتبرني من المؤسسين الأوائل للنظريات الفكرية والنقدية التي تحدث عنها النقاد القدماء، أمثال ابن سلام الجمحي وابن الأثير والجرجاني، سمعنا أحاديثه وأقواله وصدقناها، وبدأنا ننشر ذلك بين الطلبة، فأستاذنا متمكن وموسوعي وصاحب قدر وشأن في الدراسات النقدية بالعالم العربي، الأمر مؤسف طبعا، لم أثق فيما يقول وفيما يدعيه، فما أعرفه أن المتمكنين تتحدث عنهم إنجازاتهم، ولا يتحدثون عن أنفسهم في الفراغ.

سبق وأن قرأت بأن نيتشه يخبر طلبته بعدم اتباعه وتقديس أفكاره، وينصحهم بالتمرد عليه، فيقول لهم: "انفضوا عني ولا تعودوا إلا

إذا أنكرتموني"، ونحن اليوم نرى أن أستاذنا يشكر نفسه، كأنه يقول ضمنيا اتبعوا مساري، ولا تتبعوا مسار شخص آخر، أي اعتزاز هذا؟ نسأل الله بهذا أن يجعل أستاذ النقد مذكورا في تاريخ هيرودوت، لم لا؟ فهو أستاذ يفهم كل شيء، ويبحث في كل شيء، ويكتب في كل شيء.

جلسنا في المكتبة، وبدأنا نتصفح الأطروحات التي أشرف عليها الأستاذ المبجل، فوجدنا الهراء والثرثرة في الكلام في الدكتوراه المبجلة، وتأسف سعيد على تصفحها، وندم ندما شديدا، فما فيها من الأخطاء والأحكام القيمية والقداسة أمر لا يحصى، وآثار انتباهي أنهم يستشهدون بالأستاذ كثيرا، لم لا يفخر وقد ذكر في أطروحات أخذت حق الطبع؟

قال سعيد: سمعت أن هذا الأستاذ متعصب كثيرا، وقد سجل سجلا من أسماء الطلبة الذين عارضوه في مواقفه وآرائه دون معرفتهم، يرسبهم في المادة التي يدرسها، ويكون مانعا من إكمالهم السنة الجامعية في سنواتها الثلاثة، رغم أنهم يقدمون أجوبة مقنعة وفي المستوى، والإشكال أنه يتحدث مع أساتذة آخرين ليتخذوا الموقف نفسه من هؤلاء الطلبة، الذين يتركون عائلاتهم ويشقون متاعب كثيرة، ليأتي أستاذ فيه ثرثرة زائدة، فيقف في طريقهم، ويمنعهم من تحقيق أحلامهم، بسبب مخالفتهم لرأيه، قال سعيد بعدما رفع رأسه بعد تصفح عميق للأطروحات، تعددت الأسباب والفساد واحد يا صديقي نديم، ستعصف تشاؤميتك من جديد أعلم هذا.

استغربت حقا من هذه الفاجعة، الأمور تسير من سيء إلى أسوأ في هذه الدنيا، لا أمل للتمسك بها، لا أعرف مقدار الرحمة الموجودة في قلب هذا الأستاذ، والذين يشبهونه، يمارسون سلطة الجهل والقمع وفساد

الضمير، وانعدام الشفقة، صبّرنا الله على تحمل هذا، فلم نعد قادرين على تصديق ما يحصل، الشهرة والاعتزاز والفخر كلها مسائل إغوائية تفسد الإنسان، وتحقره، وتنقله من الإنسانية إلى الداروينية، سئمت مما سمعته عن الأستاذ، وتأكدت منه في الفصل، فاستأذنت سعيد بالخروج إلى ساحة الكلية قليلا، وأخذت معي كتاب "المصالح والمصائر" لعلي حرب، فخرجت وجلست، وبدأت أتصفح الكتاب، فأثارني عنوان جميل، "المنزع التقديسي"، فذهبت مباشرة أقرأ ما سطره الكاتب، لكوني معجب بكتاباته لأنه يقربني من مشاكل العالم العربي ومأساته، وأزماته، ومطالبه، لما قرأت ما قاله عن القداسة، وجدته يضرب في أمثال هؤلاء الأساتذة، الذين يبتغون قداسة من طلابهم، ويسيرون وراء منزع الشهرة الفارغة، وقفت على قول علي حرب في المنزع التقديسي،:"هذا المنزع هو أصل العلة وجذر المشكلة، كما يتجسد في تقديس الأصول والنصوص أو في عبادة الأشياء والأشخاص، إنه مصدر العجز والفقر ومصنع القصور والتخلف، أولا لأن القداسة هي أداة حجب ومحو، بقدر ما هي مصدر رهبة ورعب، وثانيا: لأن العبادة تدمر لدى الفرد منابع القوة وتشلّ طاقته الحيوية على التفكير الخلاق".

مؤسف حقا، أن تجد مثقفا وأستاذا جامعيا يرسخ مبدأ القداسة في طلبته، ويعمي بصيرتهم بالتقليد دون التجديد، ولا يربي فيهم ملكة النقد والشك، التعلق بالأسماء وتبجيلها، آفة مضاعفة ومريضة، نعاني منها بالكلية، الأمر الذي ينتج كسلا وتأخرا وهزالا وجوديا، كأننا في زمن الألوهة والحضارات القديمة، التي تتعلق بالأساطير والآلهة لتمارس حياتها وتضمن عيشها، مصالحنا ومصائرنا محددة بتنقية الجامعة من فيروس الجهل والقداسة، ننتقد كثيرا، ونقول: إن المشكل في وزارة التعليم، بل

ونرى أن العبء الكبير تتحمله الجامعة أيضا، الفظاظة تسكن أستاذا تعارضتَ معه في فكرة فيرسبك ويضعك في لائحته السوداء، الظلم بعينه.

تصفحت مجمل موضوعات الكتاب، وخشيت أن أشكره وأبجله حتى لا أسقط في القداسة، استحسنت الكتاب، وأسأل ربي يوفقني لأقرأ في يوم ما باقي أعماله، وخاصة "حديث النهايات" و"تواطؤ الأضداد: الآلهة الجدد وخراب العالم"، هذه هي حياتي أعيش بالقراءة وأتنفس بالكتب، وأرتاح بالكتابة، هي المبرر الوحيد لتبرير سر عزلتنا، وهي التي رحبت بنا حينما أحسسنا بالضيق من العالم وتعاسته. نسيت نفسي بعد الغرق في كتاب علي حرب، حتى وقف أمامي سعيد، قائلا الساعة تشير إلى السادسة يا نديم، لنذهب الآن، فقد اتصل بي مسعود أبو البنات زميلنا في الفصل، فقد أخبرني بأنه وجد لنا غرفة بالحي الجامعي، وتحدث مع شخص مكلف، يمكنه أن يتعاون معنا، ربما قد يكون الخلاص للتخلص من أعباء الكراء.

أنا لم أحمل أملا على إيجاد غرفة في ذلك الحي، المليء بالزبونية والمحسوبية، ولم أحمل كلام سعيد على محمل الجد، حتى وإن كان قول الصديق حقيقيا فلا بد من مقابل، المال ثم المال، فهو الشرف والكرامة والإله الجديد للإنسانية، قلت لسعيد: وجدتني غارقا في قراءة كتاب علي حرب، انتظرني قليلا، أجمع أغراضي ونذهب، وإن شككتُ أن مسألة إيجاد الغرفة في الحي الجامعي وفي هذه الظروف مستحيلة، وأنت تعرف أنهم يريدون أن يكون جيبك ممتلئا بالنقود، فهي الإله والشرف والكرامة والعقيدة والإيمان في عقول مسيري الحي، قال سعيد: نرجو الله خيرا، حاسب الله المسؤولين على أفعالهم وسوء سريرتهم، يقدمون غرفا للذين

يقطنون في النصر، أما نحن الذين جئنا من أقاصي الجبال، فلسنا منتمين إلى المغرب، ولكن إن يعلم الله فينا خيرا يأتنا خيرا، ألا تعلم يا نديم قوله تعالى في سورة الأنفال: "إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71)".

وصلنا إلى الحي الجامعي، الذي يجمع جماعة من الطلبة من مختلف الأصناف، ويختلط فيه المؤنث بالمذكر، ولن أحدثكم عن الممارسات التي تقع وتحدث فيه، والشنائع المضرة بالعقل، والقاتلة للقلب، اتصل سعيد بمسعود، فخرج إلينا ومعه طالبة رشيقة وطائشة، نقول عنها بالدراجة "قافزة"، تفارق معها مسعود لما وصلا إلينا، وضربته على كتفه، ومازحته قائلة: تجدني في مكاني المعهود، فلدي ما أحكيه لك، ولدي فنون جديدة، تبحثن عن أمثالك يا مسعود، ولم يكذب طلبة الفصل، فلا عمل لمسعود سوى امتاع البنات، والبحث لهن عن متعة وسط الحي مقابل ثمن يعشن به، ويتمتعن به، محترفات الشيطنة والغواية، تلك اللواتي يقدمن الفتحتين من أجل المال. أي حب يأتي بعده ندم وفساد فمهلكة للشخصين معا، ألا يعلمون حكمة ما قاله شاعرنا العربي:

أُنَزِّهُ في رَوْضِ المحاسِنِ مُقْلَتي... وأمنعُ نفسي أنْ تَنَالَ مُحَرَّما
وأَحْمِلُ مِنْ ثِقْلِ الهوى ما لَوَ انَّهُ... يُصبُّ على الصّخْرِ الأَصَمِّ تَهَدَّما
وَيَنطِق طَرْفِي عنْ مترجمِ خاطري... فلولا اختلاسي رَدَّهُ لَتَكَلَّمَا
رأيت الهوى دعوى من الناس كُلِّهِمْ... فَلَسْتُ أرى حُبّاً صحيحاً مسلّما

الحب الذي ينشأ بضغطة ينتهي بضغطة، والحب الذي تقوده الشهوة حب مشدود أمره بالتلاشي بتحقيق رغبة الشهوة الملعونة، فكن

صالحا يأتيك الصلح من كل جانب، وكوني صالحة يأتيك الصلاح من تحت قدميك، وإن كنت فاسدة، فسيأتيك مسعود وأمثاله من كل جانب، المحبون والعاشقون الصالحون يبحثون عن الصلاح، إننا نرى الحب ولا نرى المحبين، إننا نعرف العشق ولكن لا نعرف العاشقين، تحدث الصديق قائلا: لا دراية لي بالكم الهائل من أفواج البنات اللواتي يتعامل معهن مسعود، تتكاثر عليه الطالبات من كل مكان، لا نعلم كيف يستلذ شهوتهن؟ ويجعلهن مقبلات مدبرات إليه، فالذي أسماه بأبي البنات شخص وجد له اسما أدل على المقصود، ويتطابق معه تمام التطابق، أنجانا الله نحن أبناء الجنوب يا نديم من هاته الدنائس الشيطانية، التي تحفر حفرة العذاب الشديد.

رحب بنا مسعود أبو البنات، وسمي بهذا الاسم لأنه يحترف التلاعب بالإناث، ومزاجه متماش مع المتعة والضحك والدعابة، إنه من الناس الذين تركوا هموم الدنيا واتبعوا الفتن، ولم يأخذوها على محمل الجد، ولكن تجدهم الأوائل الذين تحتضنهم الحياة وتعطيهم كل شيء، مثل صديقي جمال الذي كان متهاونا في دراسته مستمتعا بحياته غير مكترث لما يحصل في الجامعة، وأتذكر أنني كنت أسأله عن سر للامبالاة التي تسكن فيه، قال مازحا: إن كتاب فن اللامبالاة الذي لا تحبه، صححته وعدلته وعلقت عليه، فلا نستفيد من الجامعة شيئا عزيزي نديم، إننا نبحث عن ورقة للخروج من أرض الجحيم، فكذلك مسعود أبو البنات، فلا همّ له بالبحث العلمي والأكاديمي، همّهم الأول البحث الاستمتاعي والإمتاعي.

الحياة ليست عادلة أيها القارئ، تعطيها جهدك وزرعك، وتحصد هواء وتطحن أسفا، تحدث معنا مسعود عن محاسن الحي الجامعي، بأنه

يقل فيه المصروف، وتأكل في المطعم وترتاح من البيض والأرز والمعجنات، وتتخلص من ضياع الوقت في الطبخ، قال: أريدكما أن تعيشا وتسكنا هنا إلى أن تحصلا على وظيفة، فأنتما المجدان في الماستر والمستحقان لوظيفة تليق بكما، ولكما القرار، فأنا سأتحدث مع صديق له زعامته في هذا الحي، حيث أخبرني بأن أقول لكما إن الغرفة جاهزة، وأرسلهما لي أتحدث معهما، نظر إليّ سعيد نظرة حيرة حرك فيها رأسه، ربما يتذكر ما قلته عن استحالة الحصول على غرفة في هذا الجحيم، وبأن الأمر سيكون بمقابل مادي، فالمال هو سيد الموقف الآن، قد يكون مسعود بريئا ويريد أن يفعل الخير، ولكنه لا يعلم بخفايا ما يقع في هذا المكان المشبوه، فهو شبيه بمدينة سوداء جرداء قاتمة، جميع ما تتخيله يقع فيها، ليست بالمدينة الفاضلة، التي أراد أفلاطون أن يؤسسها، لكنه لم يفلح؟

قدرتنا الوحيدة، هي نشر الفساد، وتمديد خطوطه، أما الأخلاق والقيم فتلك في عالم يوتوبيا الأفلاطوني، وفي العالم السفلي الذي لا يرغب في تحقيق محاسن الخلق، بعد نظرة سعيد اليائسة، قال مسعود: فكرا جيدا، فمأواكما ههنا الراحة واليسر، ولن أحدثكما عن غيث الطالبات، تجدهن كلما أدرت رأسك بلباس يثير فيك شهوة، حتى وإن كنت جليدا، تمايلات عجيبة، يتجولن في حديقة الحي بلباس النوم، والحقيقة أنه منبه يقدم إشارات بالنداء إلى المتعة، أنتما لا تعرفان هذه المسائل، يكفي أن تظلا حبيسين مع الكتاب في البيت، وتقرآن لزفزاف ومحمد شكري، والكاتب أجاثا كريستي، وأطنوان تخيشوف وبويفسكي وتولستويو ويقصد المسكين الكاتبة كريستي والأدباء أنطوان تشيخوف وديوستويفسكي وتولستوي، ضحك سعيد ضحكة خفيفة، قائلا: هيا أرنا

الشخص المكلف بالغرف، ودعك مع البنات واترك أسماء الكتاب فقد مسختها.

ذهبنا عند صاحب الغرف، ووجدناه رجلا ضخما، تظهر عليه القباحة في وجهه، أنف ضخم، وأسنان مسوسة، ومكسورة ومليئة بالفراغات، وحديثه شدقي فيه ضجيج ولقلقة، وإذا تحدث سالت من فمه تفلات تتطاير في الهواء، نظراته لا تبشر بالخير، الأساس أنه قبيح أشد القبح، وبخيل يطمع في جيوب الطلبة ويستغل ضعفهم وحيرتهم في ضرورة السكن، ليأخذ مالهم، ويعطيهم غرفة، هي في الأول حقهم الذي لا رجعة فيه، لكن خطوط الظلم والحقارة والفساد امتدت في كل مكان، تحدثنا معه، شرحنا له وضعيتنا، وعلم ببعض أحزاننا في صعوبة الكراء في النصر، وضرورة تلبية حاجات الماستر وسد حاجة المعدة، قال: ماذا سأقول لكما: الغرفة موجودة، ولكن يلزمكما الدفع والمال.

تماما كل ما ظننته كان حقيقيا، المقابل المادي حاضر في كل شيء، كان ثمن الغرفة غاليا، مبلغه خمسون ألف ريال، ونحن لا نملك في تلك اللحظة إلا ثمن اللوبية التي سنأكلها مساء بالرحاب، كيف يعقل أن ندفع مثل هذا؟ الحي حي الدولة، والسكن فيه حق من حقوقنا، نحن الذين جئنا من مكان بعيد لا محل لنا إلا الهامش، التعاسة مشربنا وسكرنا في هذه الحياة، لا أدري ما شغل إدارة الحي، بعد أن سمحت لهؤلاء الحقراء بالسيطرة على الحي، وتسييره بالعنف، سئمنا من سلطتهم وشدتهم، فأضافوا لنا سلطة جاهلة وحقيرة، أكيد ربما إنهم يستفيدون من الأموال التي يأخذها السلطوي الرجل الضخم مقدم الغرف، الذي يطلقون عليه اسم الفرعون، الإدارة تخشى هؤلاء، وكأنها سميت إدارة لتدير وجهها عنا،

وتتركنا في العراء، الأمر واضح هي تُسَيّر أمور الجبناء للسطو علينا، ولو كنا نملك ما يسطون عليه بنا، لجئناهم به، عطاءً منا وجزاء شكورا، كنت أستيقن أننا عديمو الحظ، ولكن سنرضى بما كتبه الله علينا، وسنصبر حتى ندرك ما كتبه الله لنا، برر الرجل الضخم ثمنه، بأنه أرخص مما نصرفه في شهر كامل، وبأنكما ستأكلان أكلا طيبا في الريسطو، فكرا جيدا فيما أقول وردا عليّ، فأنا الآن سأترككما لديّ شغل آخر، إذا وافقتما فقولا ذلك لمسعود، فهناك طالبات متعددات، يرغبن في الغرف، أمنحكما يوما واحدا، فالطالبات يقدمن الثمن دون مناقشة وزيادة. لم نرد على كلامه، فأخبرناه بأننا سنفكر في الأمر الليلة، ونشكرك على مساعدتك لنا وللطلبة.

ذهب الضخم تاركا في الدماغ عنفا كبيرا، يخبرني سعيد لماذا تتشاءم؟ ولماذا يشدك اليأس؟ أطلق سراح الحياة واضحك يا نديم. الصديق يعلم أن ولادتي ندم وفاجعة، رغم السعادة التي أنعمت بها في صغري، لا علم له بأن الندامة تشدني كلما رأيت مشاهد مسيئة بالإنسانية، أشدها ما رأيناه قبل قليل، وحراه يبرر لي الرجل الضخم قوله، بالأكل في الريسطو، وحسرتاه على قوم يظنون أن الخبز والأكل هو الحياة، ألا يعلمون أن الإنسان يأكل ويتآكل في دواخله بهذه المساوئ الممقوتة.

تودد إليّ سعيد بالتجول قليلا في حديقة الحي، لمعانقة جوه ونسيمه المكفهر قبل مغادرته، ربت على كتفي، وقد مصمصت شفتاي بسبب الغضب، قال اهدأ يا نديم، انس ما حصل، وهيا نشاهد مناظر الحي. ونحن نتمشى في الحديقة، فنسمع القهقهات الأنثوية، والهمسات

الغرامية، أفواه تتلاصق، وأحضان تتآزر، ومعانقات ممهدة لأكذوبة الزواج، ومجموعات تساير ركب المراجعة والمدارسة، ومجموعات أخرى تقشقش وترفرف بالضحكات، كأن الحياة تمطر سعادة، استغرب سعيد مما رأى وشاهد، أه لبراءة صديقي، ما زال شخصا ضحوكا وملاطفا ومثاليا، ضربته ضربة خفيفة، قلت له فيها: لا مجال للاستغراب أيها الصديق، هذا الحي صورة عاكسة للحياة وللعالم، أَزِلْ الاستغراب من دماغك، وأحسب ما يقع عاديا، رد سعيد: أه يا صديقي، بدأت تشاؤميتك تتسرب إلى دماغي، ضحكت ضحكة خفيفة كما العادة، وأشرت إليه بأن ينظر إلى المحجبات وأفعالهن، فتذكر صديقة ندى، وقال: لعلها تفعل مثل هاته الأفاعيل، قلت له: اترك الناس لأمرهم فلسنا مسؤولين عنهم لسوء الظن بهم، سواء ظن سوء أو ظن خير.

الصدف والمواقف هي من تريك طبيعتهم، صمت سعيد لبرهة، فقال: تقتلني بكلامك هذا، تتحدث مثل رجل عمّر ألف سنة، يعلم خبايا الوجود وأسراره، ففي كل عبارة تقولها تنطق بحكمة، محظوظ لأنني معك يا نديم، وأكيد لن تندم على رفقتي. قلت له: هذا إرث شيخي في القبيلة الذي أخبرتك عنه، وعن مجالسته أكثر من أسرتي، وقلت له: لا تتعلق بالناس يا صديقي، أترك مسافة الأمان، لكي تنجو من خيبة أمل دائمة، وإني أتحدث بكلام لا حكمة فيه، وأعلم أنك أسرفتَ كثيرا لتشبهك لي بالحكيم، لست كذلك، ولم أعمر طويلا، فالوحدة هي من تعلمك كل شيء وتنقذك من الضلالة، أتعرف يا سعيد، إن الوحدة مبلغ يصعب إدراكه وبلوغه، فهي تفتح عينيك على مآل وآفاق إنسانية، رد سعيد تماما يا نديم فالعزلة تبعدك عن المآسي والأحزان، وتقربك من نفسك ومن الوجود.

ولأنني أعلم أن هناك فرقا بين الوحدة والعزلة في المنبع الوجودي لمارتن هايذغر، فقد مازحته قائلا: أنت طالب الدراسات العربية، فقل الوحدة ولا تقل العزلة، فالفرق بينهما واضح وبين، فالعزلة يصل إليها جميع الناس ولا تقربهم من فهم ذاتهم وإدراك عالمهم، ولا يصلون بها إلى كشف سر الوجود، أما الوحدة فهي ما ذكرته أنت في تعريف العزلة، ضحك قائلا: قتلتني بفلسفتك هاته، أرى فيك معرة العصر، قلت له: بدأت الإطراء مرة أخرى، ما الذي حصل لك اليوم، لا تهذ بإسرافك هذا، لنذهب فقد طال علينا الأمد ههنا، وقد تأخرنا كثيرا، والساعة تشير إلى الثامنة والنصف ليلا. لو تركتني أنهي يا سعيد كتاب علي حرب لكان ذلك أفضل، ولكن لا إشكال يا سعيد الباحث عن السعادة، فقد رأينا مأساة أخرى من مآسي النصر، أو بالأحرى مآسي العالم، لا شيء يسعدنا يا سعيد، نعيش وهما فقط، نتربع على عرش السفالة، لن نقدر على خياطة جروحنا الممتدة من الشجرة العملاقة التي تحدث عنها ميلان كونديرا، شجرة عملاقة كانت محط التقاء هذه البشرية، خرجنا من مخرج لو تأملته لرأيت الحزن الذي يشتعل منه، نفترش الصرخة وننام على الصرخة ونعيش مع الصرخة، ونولد الصرخة، صرخاتنا يا سعيد غير محصورة.

عدنا بخفي حنين، عدنا وسعيد يحمل خيبة أمل، وعدت وأنا يائس، تحطمنا بما شهدناه، ونحن في طريق العودة، قلت لسعيد: أراك الآن يأسا بعد أن كنت ضاحكا، وذكرتني بما قاله أبو العلاء المعري:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

يحطمنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

لا أعلم هل سيعاد سبكك من جديد، أم سيتحطم كل ما فيك؟ وسيتسرب إليك التشاؤم، أم ستعقد آمالا جديدة على العالم، كما فعل برتراند راسل في كتابه: "آمال جديدة في عالم متغير"، قال سعيد: كفاك يا نديم ما يشدني ليس مرتبطا بعلة ما حصل معنا في الحي، بل بأمي التي ما زالت أوتارها تتناغم في قلبي، دعاؤها لا ينقطع، أنت تعرف هذا يا نديم لا نملك شيئا نعقد عليه بعض الآمال سوى أسرتنا، الأحضان التي فارقنها لنبحث معهم عن الحياة، بتجاوز قساوتها، ولأنني أحب المعري حبا، سقت له بيتا يقول فيه عن الأمومة، يقول:

لأسيرفي درب الهداية حسبما رسمته أمي رغم كل غبار

فالأم في ليل المكاره شعلة والأم ينبوع لكل فخار

والأم في الليل البهيم منارة تحنو على الولد الغريب الساري

قال سعيد: قلت لك إنك معرة العصر، لقد صدق المعري فيلسوف الأدباء، ومبصر العميان، فطريق الهداية المليء بالغبار رسمته أمي، وعانت لتجد قبس الحياة وتمنحه لي ولإخوتي، إنها لا تفارق مخيلتي، أفكر في الوضع الذي نحن فيه، والوضع الذي تعيش فيه أسرتي، أسعى لأكون سندا لا عالة، ولن أحدثك عن ما عشناه في طفولتنا، وما عاينه أبي، وما عاشته أمي، تلك مسائل يحسن السكوت عليها، ولذلك يا نديم فإن اسمي سعيد لأرسم طريق السعادة لأسرتي، كما رسمت لي أمي طريق الهداية، وأكون في مَكْرَهِنَا قبسا منيرا، كما كانت شعلة مضيئة، هذا هو الأمر الذي يحزنني ويحز في نفسي، أما الحياة فلا قيمة لها، ولا نبكي لأحزانها ومُصابها، العالم الخارجي كئيب وفاسد، وعالمنا الداخلي أصابه الجفاء والجفاف،

ونحن نتمشى رأيت الدموع في عيون سعيد، ولم أسع لمنعه، وبينت كأنني لم أر شيئا.

أردت أن أزيح عنه بعض الحزن، رغم أنني أشد حزنا منه، أبتغي أن أفتح عليه باب الابتسامة، فذكرته بإلهام صديقته المقربة في الفصل، فضحك ضحكة مليئة ببعض ملامح العشق، وقال: اترك إلهام، وافرغ رأسك من شيء اسمه العشق أو الحب، ألا ترى ما نحن فيه الآن، لم نتغذ والساعة الآن التاسعة مساء، فقد حرم علينا الحب وما شابهه في هذه الحياة، لقد لقينا مرارة فظيعة، والحب لن يطعمك الخبز كما تقول، فالعطالة عطالتنا عن كل شيء، ولا نظن أننا سنتفرغ للعشق يوما ما، وأصلا الصالحات الصادقات العابدات انقرضن، والصالحون والصادقون العابدون انقرضوا، فذوي الفضائل الحميدة قليلون، قلت له: هيا نشتري شيئا بهذه الدراهم بدل أكل اللوبيا عند عمي إبراهيم، الذي يعرفنا ويعرف حالتنا، وكم مرةً رفض أخذ النقود منا، البسطاء يشفقون علينا ويحنون على عبارة نرددها دائما، نحن مجرد طلبة، نطلب العلم للوصول إلى الرزق، اشترينا قليلا من لحم الدجاج وبعض الخضروات، لإعداد طاجين يكفينا معا، ونغير به روتين المعجنات والبيض.

دخلنا إلى البيت وأعددنا الطاجين، فجمعنا الغداء مع العشاء، هذه هي حالتنا أكلة أو أكلتين في اليوم، لأن همنا الوحيد هو التحصيل، ولا شيء غير التحصيل المعرفي، غدا السبت ماذا سنفعل؟ والبيت ضيق ومترمت، لا مدخل للهواء فيه، وشبكة الهاتف تكون فيه معطلة، أي مأساة هاته، والمشكل أن مكتبة الكلية لا تفتح يوم السبت، والمكتبة الوطنية نكرهها لما فيها من صخب وضجيج وعجيج، سنصبر وسنبقى في

البيت، وفجأة عرض عليّ سعيد الذهاب للتجول في معرض الكتاب الموجود في باب النصر، ومع العلم أننا لا نملك شيئا نشتري به كتبا، إلا أننا نمنح ما عندنا من مال لشرائها، ونحن نحس بسعادة تامة، ورؤية الكتب تمتع دواخلنا، وتريحنا قليلا، كما ذكّرني الصديق بالندوة التي ستنظمها الكلية يوم الأربعاء، في موضوع "تحليل الخطاب السياسي: آفاق ورؤى"، والحضور فيها إلزامي، ولأنهم يعلمون أننا لن نحضر جميعا قيدونا بضرورة إحضار تقرير للندوة. تماما نسبح في التفاهة داخل هذه الكلية البئيسة، أي جهل وأي تعنت؟ يقال: إن العلم يؤخذ من أفواه العلماء، فماذا سنأخذ من أستاذ يلحن في بداية كلامه، ومن أساتذة لا فقه لهم بأمور ويزعمون الضبط فيها، ويشرفون على موضوعات لا يفقهون فيها شيئا، وأساتذة يدسون الطلبة من أطروحاتهم.

وافقت على رأي سعيد بالذهاب إلى المعرض، لننظر إلى إصدارات الكتب الجديدة، في مختلف المجالات، لعلنا نجد كتابا معاصرين نشرب من تفكيرهم، كما شربنا تفكير القدماء، نحو الجاحظ والمعري، وننظر أيضا إلى أدب قد يفوق أدب طه حسين ونجيب محفوظ وزفزاف ويوسف إدريس وأحمد المديني، في فترة قلّ فيها التأليف الأدبي ولكن نجده تأليفا بعقله، سُبك سبكا عجيبا، يحاكي واقعنا ويلامس مشاعرنا، إن أدبهم يحركنا ويتلاشى فينا، يجعلنا نعيد قراءته دون الخلاص منه، أدب منح لنفسه الخلود والمجد الكتابي، متخلصا من التسويق الإعلامي.

وفي تلك الليلة الهادئة قرأت شيئا من كتاب: "الخوف من الموت لإريكا يونغ"، ووقفت عند عبارة جميلة لها: "لقد خاب أمل الله فينا، وفشلنا في الاختبارات كلها، إننا لسنا رحماء بالقدر الكافي لننال الخلاص،

إن الرحمة هي أرق حكمة، كما يقول التلمود"، فبدأت أتأمل كيف يستطيع بعض الكتاب تنبأ ما يقع في الواقع، إن الرحمة في الإنسان منعدمة حقا، وإن فرعون الحي الجامعي أدل على ما قالته إريكا، كل يوم نعيشه في هذه الحياة مليء بحكم نؤمن من خلالها بأن العالم مقبل على كوارث مدمرة للإنسانية، فشلنا في تبليغ رحمة الله إلى الآخرين، فشل الإنسان في إفشاء السلام، لقد أمرنا الحق سبحانه بهذا، وأمرنا به النبي صلى الله عليه وسلام، لقد قال: "انشروا السلام بينكم"، نجحنا فقط في نشر الفساد والخبث والتضليل، نجحنا في تخريب العالم، وإفساده، لقد خلق الإنسان كل أنواع الدمار، وفشل في التحكم فيها، بعد تأمل العبارة، قلت: أظن أني مقبل على صدمة داخلية بعد العنف الذي يخرب دماغي كل يوم، ونادني النوم لبعض للراحة، فتركت الكتاب ونمت وتركت الصديق يقرأ القرآن الكريم، ليحس بالطمأنينة، وينعم بالقبسات القرآنية العظيمة، ويلج إلى أعماقها، لكن صديقي يمر على الآيات دون تأمل، يقرأ قراءة عادية، دون الوقوف لتدبر الآيات وفهمها، وأنا كلما حملت القرآن لأقرأه، أظل مع كل آية أكثر من عشر دقائق، أتأمل بطونها وأسرارها وخباياها، مستحضرا فكرة الشيرازي في أن كل كلمة في القرآن تحوي سبعة أبطن.

11

الأدب ينتحر بتكاثره المجنون

حلّ الصباح واستيقظنا على صرخة جديدة في وجهنا، والبيت معتم ولا علم لنا بشروق الشمس أو إشراقها، ولكن يظهر أن هذا اليوم سيكون يوما جميلا، بزيارة معرض الكتاب، فالكتاب مسكننا الرحب، الذي نخاطب فيه شخصيات حية بمكتوباتها، تناولنا فطورا سريعا، بالتلهف إلى رؤية الكتب، خرجنا وذهبنا إلى المعرض مشيا، لأننا نتقشف لنكمل بمالنا أشهرا عديدة، وصلنا إلى المعرض وبدأنا نتجول في أروقة الكتب، رواق الأدب والفلسفة والتاريخ، ساعة كاملة ونحن نتجول، الأثمنة غالية والمحتويات لا قيمة لها، وكأننا في معرض تجاري لجمع الأموال، لا لنشر المعرفة، الإله الجديد بخّس كل شيء وأقرفه، حتى المأوى الذي نرتاح فيه لم يسلم من هذه المتاجرات، ففي رواق الأدب وجدنا الكتب كارثية في مجال السرد والشعر، بدأ جو السأم يسود المعرض، كل ما بنينا عليه آمالنا تحطم، ليتني لم أوافق على رأي سعيد، ورفضت طلبه دون المجيء، خسرنا وقتا ثمينا، فلم تكن الكتب تثيرنا، ولم تستهوينا، طبعات رديئة ومحتوى أدبي هزيل، ولغة ركيكة لاحنة، تبتدئ بقراءة عمل ما وتتنفر منه بسرعة، قال لي سعيد: أفضل أن أظل معتكفا على قراءة الكتب القديمة رقمية على عدم شراء ورقة واحدة من هذه الكتب الحديثة ولو كانت مجانا، وقلت بنبرة يأس كتب علينا الكتاب الرقمي في عصر رقمي، في ظل أننا لا نملك مالا لشراء أمات الكتب، وفي ظل بخاسة الإصدارات الجديدة.

استمر تجولنا في الأروقة، وفجأة وقفنا على رواق كتب قديمة ومستعملة، والصدفة أننا وجدنا ندى هناك تتصفح كتبا، في تلك اللحظة وقع شيء في داخلي، أحسست بارتباك، أردت أن أعود، من حيث جئت، ولكن لا أود أن يشك سعيد في اضطرابي، ولا خوف أصلا، فهو الذي سيخلصني منها، أخشى الحديث معها وحدي، وأحس بخجل أو ما شابه، سأكون هادئا، وسأقبر مشاعري، لأنني لست مستعدا لعلاقة ما، أو لإحساس تجاه شخص معين، يكفي أن أتحمل أعباء نفسي، ولكن ربما هناك شيء يجذبني نحوها، كلما تقابلت معها، أو لاقتني صدفة معها، دخلنا الرواق دون إثارة وجودنا، وبعد مرور ربع ساعة رأتنا، وتفاجأت قائلة: الطالبان المجدان حاضران ههنا، صدفة عجيبة، استيقنت أنكما ستحضران، وظني لم يُخَيّب، أهلا بك نديم المتشائم، أهلا سعيد صاحب المزحة والدعابة.

سلّمنا عليها بابتسامة مزيفة، تخفي سأما وقلقا وألما كبيرا، ليس بسببها، ولكن بسبب ما شاهدناه ورأيناه من كتب تجرأت على فعل الكتابة وهي لا محل لها من إتقان فعل القراءة، كتابات مأسوف عليها. انتبهت ندى إلى ما فينا وعلينا من حزن، فسألت عن الخطب، وقالت: ألفت تشاؤم نديم، ولكن أنت يا سعيد، الحزن لا يليق بك وجديد عليك هذه الأيام، ما الذي حصل؟ ربما ضايقتكما، إذا كان الأمر كذلك فلا مشكلة عندي أن نفترق، أصلا كان اللقاء صدفة، والصدفة خير من ألف ميعاد.

ولأنني ألجأ إلى الصمت بعد لقائها، ولا أنطق ولا أهمس بشيء، فقد رد عليها سعيد: فقال: لا مشكلة يا ندى، اللقاء معك متعة، ومسألة حزننا متعلقة بندمنا على المجيء للمعرض، كل ما فيه من الكتب الجديدة، أمر

لا يليق بحمل صفة كتاب، طلاسيم لا نفهم فيها شيئا، ولا ندري بأي لغة كتبت، وخصوصا شق الأدب يا ندى، وتعلمين أننا ملهمون بكتب الأدب كثيرا، فجئنا لنطلع على جديد السرد والشعر، فلم نجد سوى الهزل، والكلام في هذا طويل ويطول. فهمت ندى خطب سعيد، وركزت عينيها نحوي، فقالت: طبعا يا سعيد فلم يعد للأدب طعم في المؤلفات التي تظهر الآن، فقد يئست منها أنا أيضا، وعشت الشعور نفسه السنة الماضية لما جئت إليه، فصديقتكم عاشقة للكتب، وتلتهم كثيرا، ولم أصادق طالبا غيركما، طمعا في معرفة الكتب التي تقرأونها.

قلت إطراء لها: الظاهر أنك ستكونين مثل شهرزاد المغرب، فاطمة المرنيسي، ردت بضحكة لطيفة، أكيد تسخر مني يا نديم، لا أعرف إذا كنت مثلها، هل ستفتح عقدة لسانك معي، تتكلم كلمة أو كلمتين ثم تلجأ إلى صمتك، قد تكون جاحظيا بهذا الأساس، وصمتك يا عزيزي يجذبني نحوك، لأكتشف عالمك المخبوء، لأرى السر الذي يجعلني أقول عنك، إنك شخص لا تشبه الآخرين ومختلف عنهم، تنفست بشدة غير دارٍ ما أقوله، غيرت الموضوع، سائلا ندى سؤالا في سياق طبيعة كتب الأدب، هل بدا لك أن الكتاب اليوم، خليق بأن يسمى كتابا؟ فقد رأيت أن أمر التأليف والكتابة قد هزل هزلا شديدا، ويوحي بالرداءة المنتشرة في جميع الأمكنة، رد سعيد قبل ندى، فاستحضر مواقف طه حسين، التي يحمّل فيها المسؤولية لدور النشر، التي تبتغي ربحا ماديا بدل الربح المعرفي، ومن ثمة فتسهم في نشر التفاهة، وذكر موقفا آخر، راجع بالأساس إلى الكُتاب الذين يكتبون وكأنهم نيام، بحكم أنهم لا يقرأون كثيرا، والذي لا يقرأ فلا مقدرة له على الكتابة، واستمر سعيد في شرح موقف طه حسين، ونحن نستمع بدقة وننظر في الموقفين بتأمل، وختم قوله بقول طه عن نفسه في

رواية القصر المسحور،: أقرأ كثيرا وأكتب قليلا، استحسنت ندى طريقة نقاش سعيد، في عرضه للأفكار، وهذا ليس بغريب عن الصديق، فلي معه عشرة، يقلد فيها أبلغ الفصحاء في العربية.

وبعدها أجابت ندى عن سؤالي بإيراد موقف ميلان كونديرا، مبينة بأن الأدب ينتحر بتكاثره المجنون، وهنا تضاعفت الصدمة بعد صدمة مجاملة اللقاء الأول، كيف يعقل أن تلاقيك الصدفة لتدرس مع فتاة تقرأ لكاتب تعشقه عشقا عظيما، وتضعه في قائمة مقرواءتك اليومية، لم يكذبوا حينما قالوا، إن بعض الحب قد يأتي ويتولد بسبب تشاركك عشق كاتب مع فتاة معينة، أي هذيان هذا؟ لن ينفع معي حب وما شابهه، استغربت لأن ندى كانت تحدثني بأنها تقرأ الأدب النسوي فحسب، ولم أظن يوما أنها قد تقرأ لميلان كونديرا، المسألة عجيبة حقا، تقتضي وقفة تأملية.

تصاعدت الأنفاس، وبدأت التأويلات، وكأن القلب بدأ يستجيب لهذه الصدمة، ما سر التلاقي بيننا، معنى هذا أنها ذهبت لتبحث عن الكُتاب الذين أقرأ لهم، وأداوم على قراءتهم، أنام معهم وأستيقظ معهم. أكيد عرفت أنني أقرأ لكونديرا، أخبرتها بذلك أثناء حديثنا بساحة الكلية، وفي نقاشاتنا للعروض داخل القسم، لم أظهر أي استغراب في قولها، تناقشت معها، بأن هذا الانتحار الأدبي الذي أسفر عنه كونديرا، قول أصدره بناء على مصاحبة متأنية للأعمال الخالدة، لأدباء يصعب تقليدهم كتابيا، أدباء عرفوا كيف يستميلون القراء، بالسيطرة عليهم، والانتصار والظفر عليهم، إنه كان قارئا لروايات دوستويفسكي، وغابرييل غارسيا ماركيز، وهرمان بروخ، وسرفانتس وغيرهم، فلما اطلع على ما كتب في

عصره، وجده أدبا رديئا لا قيمة له، كلما قرأته أحسست بملل وبأنك تأكل أكلة سريعة لن تشبعك.

فظلت ندى تراقب كلامي بتأمل صادق، وبعد انتهائي من كلامي، عبرت عن عشقها الولهان لميلان كونديرا، وأدبه الهزلي والتأملي والتأويلي السردي، وطال كلامها حول ميلان، وبالأعمال التي قرأت له، وبالمواضيع التي يناقشها، قالت: أتعرف يا نديم لولاك لما عرفته؟ ونطق سعيد: أيِّ عليكما، هذا إقصاء فظيع، سامحكما الله، أنا سأذهب للاستمتاع ببعض الكتب، وأنتما ناقشا الغراميات بالكتب، فهو أصدق حب يمكن أن يعيشه الإنسان، وفي مكان صادق، شعرت ببعض الخجل، وابتسمت ندى ابتسامة خفيفة، وسارعت إلى الرد: لا تهذ يا صديقي، لا تنس أنني لا محمل يحملني لأركب أمواج الحب، ولا تدعني أسرد عليك غراميات إلهام تجاهك، وما سالت من دموع عنك، وما تكتبه عنك في مذكراتها النصرية، وألخصه لك في قول شاعرنا العربي:

وأحسن أيام الهوى يومك الذي... تروع بالهجران فيه وبالعتب

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا... فإين حلاوة الرسائل والكتب

ضحك سعيد بهزل، فقال ساخرا إلهام الخبيرة في علم البنات، هي مجرد صديقة عادية، تلجأ إليّ كلما شقّ عليها شيء في الدراسة، وبحكم أنها تريد معرفة الأدب العربي القديم، فلا أفتح معها بابا آخر، وسكتت ندى، تنظر إلينا، فأبهرت "سعيد" بقولها: إننا نحن البنات يا سعيد نبحث عن ملجأ نلج فيه إلى شخص نجد فيه العالم الذي ينقصنا في دواخلنا، وعالمنا المفقود، وإن الطالبة النفعية تسأل مرة واحدة ثم تذهب وتأتي لقضاء غرض نفعي آخر، وأما الطالبة البريئة، مثل إلهام، فهي لا تتردد إليك ثم

تنقطع، إنها تسعى إليك كل يوم، لتعانق روحك النقية، ولأن الصديق هزلي، فقد قال: الله الله على ندى القمرية المحللة الاجتماعية، والخبيرة في شؤون العشاق وأخبارهم، دعينا من هذه الأقاويل، فهي أباطيل لا حقيقة تحكمها، أعتبرها سروجية فقط.

فتركنا وذهب ضاحكا، وانقطع الكلام بيني وبين ندى مدة قليلة، كنت أراقب مشية الصديق إلى أن اختفى بين أناس معرض الكتاب، وبعد اختفائه شعرت بشيء ساخن يصعد في داخلي، فينتج عرقا واضطرابا، ثم بأبأة في الكلام، لما رأيت الصمت يعلو بيننا، تذكرت موضوع حديثنا عن رداءة الأدب، واستحضار قولة ميلان، فسألتها عن الكتب التي قرأتها له، ولما رأت بأن نقاش الكتب ماتع، أمرتني بأن نجلس في مكان ما، لقد تعبنا من الوقوف، واعتذرتُ منها، بضرورة ترك رسالة هاتفية لسعيد لإخباره بمكان جلوسنا حتى يلتحق بنا حينما ينتهي. جلسنا في الحديقة المجاورة للمعرض، التي يعمها جو ثقافي يتناسب مع مناسبة المعرض، قُرّاء يقرأون كتبهم، وتجمعات مصغرة مع أدباء جاءوا إلى المعرض، وترى بعض الناس وجوههم مبتسمة بحمل الكتب، لعدم درايتهم بجودة الكتابات ورداءتها، والبعض الآخر كأنه ألقي في نار حميئة، بسبب الخطر الذي ألحق الكتابة، إن الكُتاب أيها القارئ، يكتبون وكأنهم نيام، وهم لا يعلمون أن سكرات الموت الكتابي أشد قسوة وألما من سكرات موتهم البيولوجي، إنهم كتاب يعلنون استسلامهم أمام القارئ منذ بداية الصفحة الأولى، وهناك أدباء مشهورون لما تعرضوا إلى الموت الكتابي، لجأوا إلى التسويق الإعلامي، للعودة إلى الواجهة.

كنا نقرأ كتبا عديدة دون أن نعي مسكوتاتها، ودون أن ندرك معانيها كليا، لم نستطع أن نحدد معنى واحدا لها، دائما ما تبقى مفتوحة على أبواب من التآويل اللانهائية، ونحن الآن محرومون من نعمة الفهم، لرداءة أدبنا المعاصر، ومقيدون بقداسة ما يصنعه الإعلام عن كاتب ما، جاهلون لمعنى القراءة، فأن نقرأ معناه أن نحيا وأن نعيش، وأننا نمارس مهنة أو حرفة، ويقتضي تعلم الحرفة وجود أدب حقيق بها، وخليق بالتعايش معه وملازمته، القراءة فعل وجودي يمنحنا حرية الاقتراب أكثر من المقروء، يفكك خيوط العجز، ويرفعنا لنتعالى عن الكاتب ونسلب منه نصه، وإعادة تأويله، إن القبسة القرائية تلازم الأعمال الخالدة، وتظل معها لتضيء للقارئ جوانبها المعتمة.

جلست مع ندى تحدثني عن ما قرأته لميلان، وكأن ميلان كونديرا وجد ليكون سببا في لقائنا، وليجمع بيننا، لنلج مقبرة الكتب، ونغوص في عوالمها، أحقا قد تكون ندى هي الروح التي ستنقلني من تشاؤمية العالم، إلى الزاوية الضيقة المضيئة في هذه الحياة؟ كان لقائي معها عاديا، ثم كتب القدر أن تتكاثر اللقاءات بعد كل حصة، وأن تجذبني بقبسة فكرها، ونور تجليها القرائي، سيكون خلودها في قلبي، بفعل ملامستنا قبسا قرائيا مشتركا، ولأن اليوم يوم عطلة، ولا شغل لدينا، ولا عرض كلفنا به، فقد طال نقاشنا، وبدأت تعرض عليّ ما استفدته مما قرأته.

بدأت برواية "الجهل": قالت: الجهل في رواية الجهل ليس المقصود به المعنى المناقض للعلم، بل هو درجة مرتبطة بالحنين، وبينت أن الجهل عمل تأملي فلسفي، يتأمل فيه ميلان موضوعات متعددة، أولها أن الحنين ألم مرتبط بالجهل أو الشيء المجهول، لأن البعد عن الشيء واشتياقنا له

يكون لجهلنا إياه، وبنوع من الطرافة، قالت: سأعيش جهلا حنينيا حينما تفرقنا الأقدار بعد نهاية الماستر ومناقشة البحوث، لم أعرف كيف أرد، كم أنا جبان؟ أقرأ الجاحظ، ولم أستفد منه طرقا للفهم والإفهام والاستمالة، كان ردي باردا ومطعما بابتسامة هادئة، بأننا سنجتمع في لقاءات أخرى، أو قد أصادفها يوما ما في محاضرة عن الأدب النسوي، وأخبرتها بمواصلة الحديث عن رواية الجهل، وبنظرة ساحرة، قالت: أما الموضوع الثاني، فمتعلق بالذاكرة التي تختفي بفعل الغياب والفراغ، فكلما اشتد الحنين يا نديم، تفرغ ذكرياتنا، فالحنين لا يبعث الذكريات ولا يحرك الذاكرة، إنما يمتص عاطفتنا ليشعرنا بالألم، ويغرقنا في النسيان، ويجعلنا الغياب أيضا نتذكر أحداثا قليلة، وننسى جزءا آخر دون معرفة السبب، والشق الثالث الذي تناولته الرواية متعلق بالمرأة، ولأني قرأت الرواية، وأشعر بنوع من الحرج في إيرادها للمضمون الثالث، فقد تمنعت عن ذلك، لارتباط الموضوع، بتأملات في جسد المرأة الإيقاعي والموسيقي المتناسق، وعلاقتها الحميمة مع الرجل، واستدركت ندى القول، وأظهرت أنه تحدث أيضا عن الهجرة واللغة والمنفى والحب والموسيقى، واستحضاره أيضا لوقائع تاريخية زمان الشيوعية، وذكره لأسطورة عوليس، عموما فالرواية ماتعة ممزوجة بسحر الأدب وتأملات الفلسفة.

وأخبرتني أنها قرأتْ رواية البطء، التي يعقد فيها كونديرا مقارنة بين عصرين، واحد متسم بالبطء، المترابط مع الذاكرة والتذكر، وآخر متسم بالسرعة والوشيج مع النسيان، وقالت ندى، بأن رواية البطء تقربنا من طبيعة العلاقات الحميمة في عصرنا الحاضر، التي أصبحت بمثابة فيلم مستعرض، لا لذة فيه ولا متعة، ويسعى ميلان لإعادة النبض لهذه العلاقات الجافة والمتسارعة، ويقربنا أيضا من الإعلام الخبيث، والشهرة

التي أمست تشبه مكاتب التأمين الاجتماعي، أليس كذلك يا نديم؟ حدثتها، بلى أختي ندى: فرواية البطء، عمل يسعى لإعادة تبديد الحاضر وتخليصه من السرعة والعجلة، وجعله يسير على سكة البطء للاقتراب من المتعة في الحياة.

قالت أيضا: قرأت رواية الستارة، التي يكشف فيها حقيقة العالم والوجود والأدب، بطريقة سردية شبيهة بطريقة لويس خورخي بورخيس وعبد الفتاح كيليطو، ولم يترك الستارة ممزقة، بل أعاد خياطتها من جديد، متجولا بنا في أعمال روائية خالدة، بتأويلاته العجيبة، كاشفا حقيقة فن الرواية، ودورها في إدراك الوجود، وفهم الحياة، التي اعتبرها هزيمة محتومة يعيشها الإنسان، وهذه الرواية تتناسب مع موضوع الرداءة المنتشرة في الأدب اليوم، الذي وقف على عتبة الموت. عطفت كلامها، بالتساؤل حول إجادتها، في تبليغ مضمون الستارة، وهي لا تعلم أنها مزقت ستارة قلبي، وأعادت خياطتها من جديد، سكتت مصدوما، وتساءلتْ مرة أخرى ألم يعجبك المضمون؟ قلت: بلى فقد كنت جيدة في تبليغ مضامين هذه الأعمال، التي يظهر أنك تأثرت بها تأثرا شديدا.

لقد أحسست بالريبة والشك، لقد تمازجت ندى مع أفكاري، تعرف أنني أعشق الكاتبين، تساءلت حول سر معرفتها لهما؟ وأجابت بأن جميع الكتاب الذين سقتهم في أحاديثي معها، اطلعت على بعض أعمالهم، وخبّرتها، أن الطالبات اللواتي جمعتني معهن اللقاءات، كان همهن النقاش في أنا أريد أن أعمل وأن أحصل على وظيفة قارة، وأن أبحث عن محصد مالي، بعدها أفكر في الزواج، عقلهن مليء بالمال والزواج والحب الآلي، الذي يتلاشى سريعا، إنهن طالبات لا صلة لهن بالكتب، يعقدن لقاءات

غرامية للبحث عن المال، ويبحثن عن أصدقاء كثر، تختار بينهما الذي يفرغها مالا، ويتلون معها، ويبادلها بعبارات شبقية. قلت لها: أنت مختلفة عنهن، مذ عرفتك لم نتناقش في هذه الأمور، ولكن مع الطالبات الفارغات اللواتي يمتلكن عقولا صغيرة، فهن من يغردن بحقوق النساء وكرامتهن، ويسوقن أحاديث طويلة على مواقع التواصل الاجتماعي مليئة بالأخطاء، يطلبن فيها بأننا نريد سفرا، ونبتغي معيشة هانئة، ولا نريد القرار في البيوت، أصبح كل شيء رديئا يا ندى، نساؤنا يتبعن تبشرة الإله الجديد، بجعل المال الأساس الأول، يأخذنه بطرق شتى، وفي الأخير يرفعن الشكاوى، بعدم وجود الرجال ليتزوجن.

واستدركت كلامي بأن الكثير من أدبنا اليوم مليء بنصوص رديئة، يشدك الدوار والشعور بالخيبة بعد قراءتها، إننا نفتقد كتبا لا متناهية، تقودنا إلى عالم لا متناه، نحتاج إلى إصلاح كل شيء، وحق كونديرا القول بأن الحياة هزيمة حتم علينا العيش فيها.

أبدت ندى استحسانا على ما قلته، وقالت: يبدو أنك خبير في خبايا النساء، فدعنا من هذه تفاهة النساء والطالبات، ودعني أخبرك عن الكتاب الآخر الذي قرأته لميلان كونديرا، فقد قرأت رواية "حفلة التفاهة"، وهي عمل روائي يرسم صورة التفاهة التي تسود حياتنا وتسوّدها، التفاهة التي نستنشقها في كل مكان، ومن جميع الأشياء، موجودة معنا حتى في أسوأ مصائبنا ومعاركنا الدامية والمميتة، وحدثتني بحسرة أن الحياة لا تحتاج أن نتبعها بمأساتها وتفاهاتها، وأتمت قولها عن الرواية، بأنها مزجت بالفلسفة والتاريخ والهزل، التاريخ باستحضار ستالين، والفلسفة تتكشف في تعارضه مع فكرة كانط في مفهوم العالم،

وذكره أيضا لروح الدعابة الهيغلية اللامتناهية. والهزل تمثل في ذكره لقصة خرتشوف الهزلية، مع تأملات في قيم الإنسان البئيسة، والشجرة العملاقة المتجذرة من حواء.

استوقفتها عند فكرة الشجرة العملاقة للبشرية، المتجذرة من فرج حواء، الذي أصبح نقطة ولادة الكثير من الأشقياء والتعساء، فسقت لها قولا لينتشه، قرأته في كتابه: "هكذا تكلم زرادشت"، يتماشى مع هذه الفكرة، بقوله: "فعلام تلد النساء وهن لا يقذفن إلى الوجود إلا بالأشقياء"، قالت: أرى أنك نتشوي أيضا، ونسيت إخبارك يا نديم، فبفضلك عرفت أدباء تعرفهم القلة القليلة، كنت فقط أقرأ لأجاثا وغيرها من الكاتبات، وقلت في خاطري، معكِ عرفت بعض الأمل وفسحه يا ندى، إنك الفتاة التي لا أعرف أين رأيتها، وأين التقيت بها؟ تشبهن شخصا يوجد في داخلي، أو صادفته في مخيلتي، لم أشعر بإحساس شبيه بهذا من قبل، أبعثك الله ممزوجة بكل ما يدور في مخيلتي، وتؤمن به أفكاري.

مضت ساعة ونصف من المحادثة والمناقشة، كانت ندى مجيدة، لو جلست مع طالبة أخرى، لظلت تسرد عليّ أحاديث في موضوع أنا أحب أكل الكسكس، وإن لباسي المفضل يميل إلى العصرية والقدامة، وإني أتمنى ولادة ثلاثة أبناء، وسأعيش الرومانسية مع زوجي، وتعكس عليّ أسئلتها، لأحدثها عن مأكلي ومشربي وملبسي، وندى خرقت هذه السنة، وتعدتها وتجاوزتها. استمر النقاش، إلى أن التحق بنا سعيد، ومعه كتابا البخلاء والرسائل الأدبية للجاحظ، فبدأ قوله بهزله وسخريته المعهودة، فقال: أرى أن الصبابة تملأ عينيكما، وتليقان ببعضكما البعض، كلاكما محبان للفلسفة، وملهمان بالأدب، وتحبان الصمت، وتجدان في العزلة

مرتعكما، ربما ستكونان أنيسين مؤنسين، أما أنا فقد تركني وسيتركني نديم وحيدا، وتكلمت ندى، قائلة، يكفيك يا سعيد هزلا، فنديم لا يفهم في الحب وما شابه، ولا يريد طرق هذا الباب أصلا، أما أنت، فقد شغفت بك إلهام كثيرا، وأظن أنها تعلمت منك الكثير، وابتليت بالنفحات التراثية التي تعلمها لها، فقد وجدتها مرة في خزانة الحي مع طوق الحمامة لابن حزم، أرى أنها تحضر طبقا شعريا تمهد فيه للاعتراف بحبها لك، وإن عينيها لا تفارقان النظر إليك داخل الفصل.

فضحك سعيد مقهقها، وربت على كتفي، متسائلا: ماذا تقول ندى يا نديم؟ قل لها: إننا لسنا نليق بالحب، فالحب لا يوفر الخبز في هذا الجيل، أخبرها يا نديم عن الذي تقول له: الإله الجديد، إنه المال، يوفر لك كل شيء، نريد مالنا فالحياة معطلة إذا استمرت عطالتنا.

كنت كالمستمع بين ردود ندى وسعيد، استمرا في الحديث عن السعادة والشقاء، ولما رأيت نقاشهما قد يطول تركتهما لأنظر في بعض الكتب المستعملة، فقد أجد غنيمة رخيصة الثمن، أفضل من كتاب جديد باهض الثمن، ولو كان مالنا قليل، فحينما يتعلق الأمر بالكتب، فنصرفه كاملا دون ندم وحسرة، فاشتريت ثلاثة كتب لأجاثا، بعشرة دراهم لكتاب واحد، وبعدها عدت إلى مكان ندى وسعيد، ظلا في مكانهما، يتناقشان في موضوع ندوة الأربعاء، ولما جئت، رأتني ندى أتأبط كتبا، فقالت: وسعداه بزوجتك، ستنال حظا وفيرا من كتبك، ستكون بطلة رواياتك وبطلة حياتك، فلتفخر التي ستكون من نصيبها، دعني أرى ما اشتريت، وبنوع من الذهول والاستغراب، قالت: أشتريت مؤنستي أجاثا؟ لغز الصورة، والتضحية الكبرى، وذكريات، فقد قرأت هذه الروايات يا

نديم، لن أخبرك بمضامينها، دعك تشعر بنوع من التشويق، ومازحتها بلطافة، أكيد لن ترقى إلى أدب ميلان، ابتسمت، ورفضت الدخول معي في نقاش المفاضلة بين كاتبين عظيمين، فقال سعيد: هيا نذهب لنأكل شيئا، ألا تشبعان من الكتب، فالساعة الآن الرابعة مساء، لقد أخذ منا التعب الطاقة التي نملكها.

تفهمت صديقتنا الوضع، فودّعناها، وتركناها في المعرض، ذاهبة لتشتري بعض الكتب، وأنا وسعيد كالعادة، ذهبنا مشيا على أرجلنا إلى درب الرحاب، صرنا مشائين، نشبه أصحاب الفلسفة المشائية، وصلنا إلى البيت واسترحنا وصلينا، وبعدها خرجنا لنشتري القليل من الخضرة وبعض لحم الدجاج، لنعد طاجينا آخر يكفينا إلى صباح يوم غد الأحد، رغم أننا صرفنا دريهمات قليلة في المعرض، ولحسن الحظ سمعنا أن المنحة والمحنة في ذلك المساء قد خرجت، قرصنا حائط المصرف وأخرجنا النقود، وذهبت في دين الكراء كأنها لم تكن.

تم كل شيء، وأكلنا الطاجين الذي أعده سعيد، ووصل الليل والهدوء والسكون يعمان البيت، أخذت أنا أقرأ شيئا من شعر المعري، الذي سأتركه قريبا بعد ملازمة شيقة، لأقرأ صنيع الحلاج، وأما سعيد فقد خرج ليتحدث مع إلهام، لانعدام الشبكة في البيت، ليتداول معها أطراف الحديث، ويفتيان بعضهما البعض في مسائل الغراميات المرحة، أظن أن الفتاة أغرمت به، ويشدها الشوق كل يوم لتسمع صوته، هو يظن أن ما تفعله شيء عادٍ وبريء، ويصعب أن يحب في هذه الظرفية، ولكن قد يتولد فيه في لحظة ما، ولا يعلم المسكين أن الاهتمام يولد حبا، ألم يقل شوقي:

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ ولقاء

سعيد إنسان عاهدت فيه وعليه البراءة في كل شيء، يساعد الطالبات كثيرا، لا ينظر إلى نياتهن، وقصدهن، سواء أردن الاستغلال أو الاستفادة، فهو يعرف شيئا واحدا، التعاون مع الطلبة بمختلف أصنافهم، ومن ابتغى شيئا فمرده إلى الله تعالى، وأرى فيه صورة صديقي جمال، عشيري سنوات الإجازة، بالعهد، شخصان صادقان مختلفان، صادقان في مشاعرهما، مختلفان في سلوكاتهما وأفعالهما، سعيد الملتزم المجتهد، وجمال الزهواني الكسول، ولأن الحياة ليست عادلة، فجمال هاجر إلى أمريكا، وسعيد متسكع هنا بالمغرب، في جامعة لا تؤمن بشيء اسمه الاجتهاد، والأساتذة الذين يدرسون فيها لا أعرف كيف صاروا أساتذة جامعيين، ولا ننكر بأننا نعرفه أساتذة أجلاء فضلاء. إن الحرية التي منحت لهم هي السبب في كل ما يحصل، طلبة لا حول لهم والقوة، يشتكون من الغيابات، ومن طبيعة المحاضرات الباردة.

على مقربة من النوم دخل سعيد، وفي وجهه بعض القلق، أخبرته عن سبب حزنه، فقال: إن إلهام ترغب في اللقاء معي غدا، تريد مراجعة مادة النقد القديم وأهم قضاياه، سأضطر غدا لتركك وحيدا في البيت يا نديم، وإذا كانت لك الرغبة في الذهاب معنا، فذلك أفضل. لم أرد على كلامه بجواب يؤكد رفض أو موافقتي على المجيء، ثم استدرك فقال: بدأت أشك في كثرة إلحاحها على الحديث معي واللقاء معها، ظننت أن المسألة نفعية بعد اقتراب الامتحانات، ولكن أرى أنها حقا تحس بشيء تجاهي، فالامتحانات مرت وانقضت وهي ما زالت تصر على البقاء معي.

نام مباشرة، ترامى على فراشه، ولم يمض إلا وقت يسير حتى غرق في النوم، وأطفأت المصباح، ولجأت إلى النوم، وأنا بدأت أفكر في ندى، وبعض ملامحها، ونبراتها الصوتية أثناء نقاشنا، وتخيلت صورة وجهها أمامي، ما زال وجها طفوليا مشرقا، أتخيل نظراتها، سهوت لأجعلها على مقربة مني، أيصح أن تكون ندى مغرمة بي؟ رميت نفسي أتأمل الغرفة، وألقي الجسد عن يمنيني وعن شمالي، مبتسمة مرة، ومتجهمة مرة أخرى، متأففا أبحث عن سبيل أسوق فيه نفسي إلى النوم، نمت قليلا فحسب ثم استيقظت، بقيت على تلك الحال، متذبذبا ومنهمكا، بين حالة سعيد القلقة، وإحساسي تجاه ندى الغريب والجديد، سهوت راحلا إلى عالم أتأمل فيه ما أنا عليه، سهرت السمر كله إلى أن حلّ الصباح، وتوقفتُ عن التفكير المباح.

12

شوق ولوعة

كان اليوم يوم الأحد، يوم عطلة، سأمضيه في القراءة وحدي، سأحاول تتمة الصفحات المتبقية من ديوان المعري، لأفتح ديوان الحلاج، بعد مداومة متأنية للمعري تحققت لي فيها أسرار الحياة وعجائبها، سعيد لن يكون معي اليوم، سيلتقي بإلهام، ليراجع معها بعض الدروس، سيلتقيان بالمقهى مع الساعة العاشرة صباحا، والساعة الآن التاسعة، وسعيد غارق في نومه، ترامى ونسي اللقاء المعرفي أو بالأحرى الحميمي، مع طالبة تمتلك حقها من الجمال والجلال، نزّاعة إلى الصمت داخل الفصل، تكون مع آمنة المحجبة في أوقات الاستراحة، مزاحة ولطيفة، وعلى ما قال لي سعيد، إنها طالبة مجدة، تهره كل يوم بملخصات عن كتب تراثية يعشقها، وهي من نواحي مدينة فرح، حصلت على الإجازة في جامعة ابن اللبانة، جاءت للنصر لتكمل مسارها العلمي، وتبحث عن إنسان ينسيها صخب النصر وضجره، ربما وجدت في سعيد ذلك الشخص الذي يحدثها في عالمها الداخلي، ويملأ فراغ شوقها، ويسد بعض حنين أهلها، وقبل استيقاظ الصديق من أجل الفطور، أخذت القرآن الكريم، لأقرأ فيه قليلا، وأتأمل فيه بعض الآيات التي جاءت في سياق حديث الحق سبحانه عن الإنسان، قبل أخذ الديوان، وقفت عند قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾، بدا أمر الآية متناسبا مع مقترحات الإله الجديد وتراتيله التي زرعها الإنسان في عقله، الإنسان ظلوم أشد الظلم، ولم يترك شيئا إلا وظلمه، يحبب إلى الآخر الحياة. الإنسان كفَّار أزهد في

كفره، فكفر بالإنسانية وبالضمير، ولم يعد قادرا على الوقوف أمام الله، وقد أدركنا يقينا أن الدنيا مزحة سيئة، لا تبعث على شيء من المرح والفرح، مجرد دار خربة، أجسادنا مليئة بالجروح والقروح خوفا من كارثة يواجهها العالم، الذي ينكر القدرة الإلهية ويبددها، ولا يعلن على حقيقة هذه القدرة إلا حينما يتعرض إلى الأنقاض، أو حينما يكون مقبلا على فاجعة إنسانية دامية، وهذا منزع أشار إليه دانتي في الكوميديا الإلهية، بأن الإنسان لا يعلن القدرة الإلهية إلا حينما يقف على أعتاب كارثة أليمة.

ووقفت عند قوله تعالى في الآيات الآتية: ﴿"إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ" ٦٦ الحج﴾ و﴿"وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ٥٤ الكهف﴾ و﴿"كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ"6 العلق﴾ و﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ" 6 العاديات﴾ و﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ 2 العصر﴾، فالإنسان تبعا لهذه الآيات المختارة، وغيرها من الآيات، جعل الحياة مزحة سيئة يهلع بها كل من جاء إليها، إن الكفر والطغيان والجدل والكنود، مواصفات ستلقي بنا في الضلالة، وفي العقاب وفي المأساة وفي الخراب والفساد، ولم يكن سؤال الملائكة الله سبحانه سؤالا بريئا، بعد ابتغائه جعل الإنسان خليفة في الأرض، وعلم الملائكة بفساد هذا الإنسان الخليفة وطغيانه وسفكه للدماء، وما حدث ويحدث وسيحدث أمر يبين أن تاريخ الإنسانية تاريخ دموي.

الكثير من الناس لم تعد لهم القدرة على الصبر. المشردون والعابثون والمقمعون واليائسون والعابثون والمجهولون يطلبون مفرا للخلاص من مآسيهم وآلامهم، قد يرضون بجهنم على عدم العيش في هذه الدنيا، يريدون مفرا ومخلصا هانئا، ومطلبا من رحمة والهناءة والسلام،

تجاوزا للمرارة التي تتكرر كل يوم، مشربنا في الحياة كان مرا وعسيرا، فقط ننتظر جودو الذي سيأتي، ليخصلنا وينجينا، وفي الحقيقة يبدو أن جودو الخاص بي، موجود في ندى، شيء ما مخبوء في داخلي تجاهها، بالغت إنكارا لحياتي السيئة، أتجرع كل يوم صدمة، وألاقي كل يوم أسفا، فجاءت ندى لتكون المنقذة من وحدتي الطائلة والممتدة، ستقودني إلى الأعالي، كنت صرفت عنها النظر داخل الفصل وفي الساحة، وقلّ معها حديثي، أما الآن، فقد تغير كل شيء تماما. لم أكن أنتبه حقا لنظراتها، لكن بعد لقائنا في المعرض، بدت لي أن صورتها ليست غريبة عني، ربما هي الفتاة التي أحلم بها، أو رأيتها في حلمي، أو صادفتها في رواية ما، ليست غريبة عني، لا أتذكر بالضبط أين رأيتها، وأين التقيت بها؟، حاولت أن أتذكر، لكن التذكر مصاحب للنسيان، إنها الفتاة التي راودتني في أحلامي، وما زالت تراودني، سحرها سيطر على العين فأعماها عن كل شيء، إلا هي، مخيلتي مشغولة للبحث عن مكان لقائي معها في ذاكرة الماضي الميت.

إنها قبسة أضاءت عتمة قلبٍ ظل طول سنواته فارغا من مشقة الهوى، ولم يتجرأ على خوض تجربة عشق مع شخص ما، كأنني أحلم، ولكن طبعا وجدت لوعة أشواقي، النور الساري في ضلوعي، وجمال يستوطن في جنباتها، ليقيدني لكي لا أبتعد عنها، ألقتني صريعا ملقيا على وجهي، هل سأكون واحدا من العاشقين الذين ذكرهم صاحب مصارع العشاق؟ التي لم أكن أعلم بأن أسواقهم مليئة بالنور، إلا أنه نور يشق على العاشقين، ويذهب عقلهم، ويستهويهم ويرخيهم.

يلقي الله العشق في القلب دون استئذان، يلاقي الأرواح رغم بعد المسافات، هو القادر على صنعنا وتصويرنا وخلقنا، يخلقنا في الدنيا

مرتين، حينما نخرج من بطن أمهاتنا، وحينما يلاقينا بروح أخرى نتلاشى فيها وتتلاشى فينا، لنصبح ذاتا واحدة، مزجت فيها ذاتان، في الحب تُخترق كل سنن الكون، لا أدري حقا هل ما أنا فيه حقيقة أم مجرد حلم؟ فندى ذات قامة ملائكية صافية الوجه، نقية السريرة، زاهية النظرات، سامراء الوجه، تخطفك من أول نظرة إليها، أنا لم تخطفني من أولها، ولكن الآن خطفتني بكلي، معذبتي الأنيسة، مؤنستي الجميلة، متى سيجمعنا اللقاء؟ متى نلتقي معا؟

اللقاء وحده يحمل أفقا ربانيا، فيه تلامسك نعائم الرب، وتداعبك نسمات سمائه. بشائر اللقاء يقودها شيء واحد، هو الشوق، شوقي بمثابة أمواج تناجي الله لترسوا في سلام، لتهدأ ولتجعل البحر هادئا، لم نكن ندري أن موج البحر يناشد العشاق ويلاطفهم، وينشدهم أغاني ملحونة بقطراته الأخيرة، أيها البحر دلني على طريقك المجهول، لأبوح لك بملامحها، لعل صداي ينتقل إليها، ويهمسها كل ليلة بأني أرغب في وصلها، وربما نتجول في الشاطئ الذي يجتمع فيه العاشقون، الذين يحاكون فيما بينهم أسرارهم، ويتبادلون عناقتهم، ويمازجونها بالقبلات، هل يا ترى تحس بما أحس؟ هل حقا قد لاقى الله بين روحينا؟ قلوب العشاق لا تعرف معنى للحقد والكراهية، إن قلوبنا تعيش بالإحساس، ووحدها تملك موجات خفية، لا كاشف لها إلا الله.

ندى هي الفتاة التي حلمت بها، أو التي التقيت بها في المستقبل، نعم، تفكيري حول هذا العالم التعيس أن أعيش وحيدا، كنت أدافع عن هذا أمام زملائي، وأشتد فيه مع سعيد، إني خلقت لألج إلى عالمي فقط، ولكن أحاسيس القلب لا تؤمن بالقناعات والمبادئ، وأوجاع الصبابة تغير كل

المواقف، القلب وحده يجعلك ترغب في أشياء لا تريدها، والحب وحده يرغم عليك فعل أي شيء، لقد أراد الله أن يبعث لي مؤنسة تلاطفني، تفهم وحدتي، وتستميلني بفكرها ووعيها وشغفها القرائي، وكونها حشرت في المقبرة التي أقبرت فيها ذاتي، سنوات الإجازة، والسنة الأولى من الماستر، ندى هي جودو الأمل المنتظر، وجودو الحب الغائب، جودو سيبعد عني قسوة المشهد المأسوي للعالم، كنت دائما أقول إنني لا أستطيع تحمل أعباء نفسي، فكيف لي أن أتحمل شخصا آخر؟ لقد تكسّرت كل قناعاتي وكل تأملاتي، الحياة تلاقيك بمن يهتم بك ويصاحبك، رغم الحقد والكره فلا بد أن تجد شخصا يشفق عليك، ويواسيك، ويكون معك في هزائم الحياة المحتومة، وينير لك الطريق المعتم أمامك، إنني أنتظر بشوق ولوعة اللحظة التي سيكون فيها اللقاء.

همست إلى نفسي أخاطبها، فأقول: زهدك في نفسك يا نديم لن ينفعك لحظة الحب، إنك تُلقى مصروعا في أحضان ندى، وهنا تذكرت الكتب التي قرأتها عن العشق والحب، لم تكن عناوينها توحي بأمل للعيش، لعلي سأعود لأقرأها من جديد، حتى أتبين مصيري في حب نزل عليّ كالصاعقة، هل مجرد وهم بأنه حب؟ لم يمنحن الحب ولو ثانية لأفكر وأراجع أوراقي، وأتأمل لحظة بعدها أقرر قراري الأخير فيه، البغتة كانت شديدة، حقا فالحب لا ميعاد له، الحب موت يأتيك من حيث لا تحتسب، الحب هو المصير المنتظر، هو المَنشدُ الإنساني للعالم، إنه مسعى فلاسفة السعادة والعيش، أمثال ميشال أونفري، الذي يبحث بفلسفته عن نمط للعيش، ومطمحه الأخذ بمطمح شامفورت في قوله: "تمتع وأمتع، دون أن تؤذي نفسك أو تؤدي الآخرين"، وقرأت مقالا عنه الأسبوع الماضي، قراءة متأنية، على اعتباره مقالا مترجما من يوسف أسحيردة،

وظني في محله، إذ يرى أن العالم يحتاج إلى الحب، وأعلم عزيزي القارئ أن روسو وضعه من حاجات الإنسان الضرورية، الحب رغبتنا الأولى لنحقق السلام، لنواجه عبثية الإله الجديد، فقد أفسد تاريخ البشرية وأعماها، وبدا أمر حاجتنا إلى الحب، كون أن الله أحب أن يعرف نفسه، فخلق الإنسان ليُعرف، والمبدأ الحاكم لخلق الإنسان هو الحب، ومطالبنا السامية تتحقق بالحصول على الحب وتحققه.

بينما أنا مستمر في القراءة التأملية للآيات التي استعرضها، وربطها بواقعنا اليائس، رن هاتف سعيد، ربما إنها إلهام، وهو غارق في النوم، والساعة تشير إلى العاشرة، ونسي موعده مع إلهام، أظن أن شيئا آخر غير مراجعة الدروس جعل سعيد ينام كل هذه المدة، المعهود عليه الاستيقاظ باكرا، في المسألة سرّ أو مكيدة، لم يستطع أن يخبرني بها، حاولت إيقاظه، لإخباره برنين هاتفه، استفاق متثاقلا، ونظر إلى هاتفه، وقال لي: صباح الخير نديم، لقد تأخرت، تركت إلهام تنتظر في المقهى، سألته عن سبب شروده؟ أجاب بأنه تعب آخر الأسبوع فقط، ولا شيء يجعلك لتقلق يا نديم، لم أصدقه في قوله، وقلت: إنه يكتم عليّ شيئا ما، وسأدعه يذهب فالعشيقة تنتظره، وسأتأكد من عدم وجود خطب يزعجه ويقلقه بعد عودته، قام وصلى وأكل بعض التمر الذي أحضرته من زاكورة، فخرج، ولا علم لي بالساعة التي سيعود فيها.

عدت إلى نفسي أتحاور معها، أُعِدُّ عدد المآساة التي تحوم حولي، طبعا، إن المصائب لا تأتي فرادى، سعيد لديه خطب ما، هذيان حب لا أعرف حقيقة شعوره، أسرتي التي تنتظرني لأشتغل، لنحسن ظروفنا قليلا، بعد حدث تفرقتنا مع العائلة، التي كنا نعيش فيها حياة شبه

سعيدة، وسعينا للقتال في النصر المشؤوم، وفي سجن بلدنا الذي لم يؤمّن أبسط حاجاتنا، وما يؤلمني هو جامعة تقبر أساتذة يتشكون من ضعف الطلبة ويتناسون ضعفهم وسوء سريرتهم، تجد القلة فيهم من تبعث فيك الأمل، وتحيي فيك حب العلم والمعرفة، وتوصيك على الصبر في طلبه، أساتذة تجدهم في صفك، يؤمنون بقدراتك، يتواضعون ويحسبونك ابنا لهم، لا يحدثونك عن أنفسهم، وعن مسار حياتهم، لا يظهرون لك إنجازاتهم، يمتعونك في المحاضرات وكفى، ولن أنسى مستشفيات مشيدة ليموت فيها المرضى، طبعا تأتينا لحظات نقرر فيها أننا مجبرون على تقبل الحياة كما هي، والبحث عن نمط جذري للعيش. أخذت لأنهي ما تبقى من ديوان المعرة، وعلى مقربة ختمه للمرة الثالثة، استوقفني قوله:

والعالم ابن والدهر والده نجلٌ غوى ووالدٌ غُدر

العالم مخبأ الغواية ومسكنه الغدر، ومثوى للضلالة ومرتعها، وملجأ للأشقياء والبؤساء. المحظوظون من لم يولدوا، ومن ولدوا وقادهم الموت لعبور صراط غواية الحياة المنتهية، نحو حياة أبدية ينعمون فيها إلى الأبد. لقد اكتشفت معك أيها الشاعر المعري، أن الحياة مجرد انتكاسة رضينا بها، لقد أبصرتَ بشعرك ما لم يبصره المبصرون، وتعلمت من شعرك أن الناس متساوون في النعرات، ولا تأتي منهم سوى المرعدات والموبقات، وإن شرهم كخيرهم، وأبانت أن الدهر أساس الغدر ولا نرى منه إلا أكافس الأشياء وأقابحها، وإن الزمان يأتينا بمشارب الفظاعة والبشاعة. ويحق أيها القارئ أن يكون المعرة شاعرا يسكن معنا في حاضرنا، رغم قدامته، إنه شاعر أتى من المستقبل ليخبرنا بخبايا الحياة.

اعتكفت على الصفحات حتى أنهيتها، وبعدها فتحت ديوان الحلاج المقتول والمحروق، قرأت سيرته أولا، واكتشفت سر قتله، إنه قتل بسبب سوء فهم شعره. لم يكن الإنسان وحده الذي تعرض للقتل والسفك، فحتى الكتب تعرضت لأبشع المجازر، صُلِّب أصحابها وأبيدوا، ولما تأملت قصة الحلاج، بدأت أستحضر تاريخ الكتب المحروقة والممنوعة، وأسباب حرقها ومنعها، والأسباب في الغالب مرتبطة أساسا بحديثها عن جوانب مقدسةٍ في الدين، إما مرتبطة بالله، أو النص المقدس، أو أنها اعترضت على شيء يتعلق بالخلافة والنظام السياسي العام، وخصوصا في الثقافة العربية، وما زال الأمر مستمرا إلى الآن، ثقافة حرق الكتب ومنعها دائمة، فقد تم منع كتب ناصر حامد أبو زيد، والغزالي، ونجيب محفوظ وطه حسين، وتم منعها بسبب رقابة السلطة الدينية أو السياسية التي تتغيا الجمود، وتبتغي جعل الناس تعيش على أوهام منتهية، وأنقاض تلاشت وانقضت. مَحْرَقَةُ الكتب فاجعة ثقيلة وإثمٌ فظيع صنعته الرقابة المتحكمة في قلم الكُتاب، بتشاركها مع منظمات لا صلة لها بالحرية وما شابه، فلا غرابة فيما يقع، لأن السيف والقلم أمران متلازمان منذ أمد بعيد، ولم تسلم الحضارة الأوربية أيضا من هذا المفزع الإنساني، وأتذكر بالأساس كتابا، قد يعود إليه القارئ، كتاب: "الكتب الممنوعة" لماريو إنفليزي، قرأت فيه أن القوائم الباريسية الست، كما أعدتها كلية علوم اللاهوت في السوربون من عام 1544م إلى 1556م، منع على إثرها ثمانية وعشرون وخمس مئة كتابا، والإحصاءات في هذه المسألة كثيرة، للقارئ أن يتعرف على قائمة بولس والبندقية، والقائمة الرومانية.

أي مطمح نطلبه ونحن ننتج رقابة ضد الرأي الآخر، ضد العلم وضد الكتاب، ادعاء منا بأنه يمس المقدس، يريدون فرض السيطرة حتى

على عقول الناس، التي منحها الله الحرية للتفكر والتأمل والتدبر، إن المقتولين بسبب كتبهم شكلوا عائقا أمام عجز الرقابة المسؤولة للرد عليهم بالأدلة المنطقية، وإن الكتب المحروقة والممنوعة ما زالت تنير عقولنا، وتخنقنا بدخانها اللامتناهي، لأننا نظل مشمرين للتفكر فيها، والبحث عن أسباب منعها، دون النظر إلى الأسباب التي توردها الرقابة.

يسمحون للرداءة أن تنتقل إلى عقولنا بكتب تتناول موضوعات اجتماعية، يمكن مشاهدتها في فيلم سينمائي، بدت المسائل واضحة عندنا الآن، وأدركنا أن ما يمنع وما يحرق، يكون في نظر السلطة قد ارتكب خطيئة عظيمة، ويحسب أهل الرقابة أن المحروقين والمعذبين ارتكبوا خطيئة تنويرية يخشون منها منح الشرعية العقلية إلى عامة الناس، ويظلون مراقبين لهم، لكي لا يقوموا بمحاولة استهدافية أخرى.

هكذا كانت نظرتي، لما قرأت سيرة الحلاج، قبل الدخول إلى متاهات شعره المفتوح على آفاق تأويلية متعددة، فجأة نظرت إلى الساعة، فوجدتها الثالثة زوالا، وسعيد لم يعد بعد، والجوع بدأ ينخر بطني قليلا، وفكرت في أن أخرج لمطعم شعبي آكل فيه عدسا، ولا بديل من غير مطعم عمي إبراهيم، خرجت وأكلت وأحسست براحة وسكينة، وعدت إلى البيت، واسترخيت بعض الشيء، لأخذ طاقة أكمل بها الليل قراءة، ولم تمض إلا ربع ساعة على الاسترخاء، حتى سمعت رنين هاتفي، لم أعرف صاحب الرقم، وترددت في الإجابة، وتفاجأت لأنني ألفت فقط اتصال أبي أو أمي، هذان هما الرقمان الأكثر سجلا عندي.

تركت الهاتف يرن إلى أن انقطع الاتصال، ولم أجب، وسمعت الرنة مرة أخرى، وأجبت، ووجدت أن إلهام هي المتصلة، وشعرت ببعض الذعر

والخوف، ربما حصل مكروه أو ما شابه لسعيد، كانت الصديقة سريعة في كلامها، لدرجة أنني لم أسمع منها شيئا، هدأتها وطلبت منها إعادة ما قالته، فأخبرتني أن الصديق سعيد كان جالسا معها بالمقهى، يراجع معها، وفجأة صرخ وتعالى صوته بالبكاء، وغادر دون أن يقول شيئا، واتصلت بك لأخبرك هل هو في البيت؟ أم أنه لم يصل بعد، لقد قلقت عليه كثيرا، أتصل به ولا يجيب. بعد سماع ما قالته إلهام، شعرت بصاعقة في داخلي، وكأن شيئا حارقا يصعد ثم ينزل، أخبرتها أنه لم يتصل، ولم يأت إلى البيت، وطلبت منها الانتظار في مكانها، لنبحث عنه، وأنا خارج فعقلي كله مع سعيد.

قلت: أه فقد يفعل شيئا خطيرا بحاله، ترامت عليّ أفكار سيئة، أرجو أن يكون بخير، وربطت الاتصال به لما وصلت إلى مكان إلهام، ولا يجيب، كانت الصديقة مصدومة ومبهوتة، ترتجف خوفا من أن تكون سببا في حصول مكروه ما، حالتها يائسة، تبكي من شدة الحسرة، حاولت تهدئتها ولم أفلح، أي إنسان أنا، لا يقدر حتى على تبريد مشاعر الخوف والحزن، تشجعت شيئا ما وأغلقت عيني، وضممتها إلى صدري، ربتت على صدرها، وهدأتها، وأخبرتها بأننا سنجده وسيكون بخير.

استمرت في البكاء، وقالت: أرجوك يا نديم افعل شيئا، إنني أحبه أكثر من نفسي، إني مليئة به ولن أستطيع الصبر إذا حصل له مكروه ما، إني متيمة به وأعشقه عشقا جنونيا، الله أعلم بحالي، وبعشقي له، أريده كما هو، قلت: سنجده صديقتي، امسحي دموعك، فالناس ينظرون إلينا، فقد يظنون أنني السبب في بكائك، توقفت عن البكاء، وذهبنا لنبحث عن الصديق في الأماكن العامة بدروب الرحاب.

ونحن نسير صامتين، أتأمل حالة إلهام، تساءلت أيعقل أن حبها لسعيد صنع بها كل هذا؟ جريحة تحتاج ضمة أشبه بعناق الأم لابنها، وجد الحب لنخمد به جراحنا، وما أحس به تجاه ندى ليس عشقا، فلم أحس بما أحست به إلهام، ربما هناك اختلاف بين العاطفتين، النساء أغلب عاطفة وحنانا ولطافة من الرجال، نحن قساة ولكن مُجِنون، سألت إلهام، هل أخبرت سعيد بشيء ما؟ قالت في لكنة منحنحة، لم أقل له شيئا، فقط حينما جاء صباحا، رأيت في وجهه بعض القلق واليأس، ولم أتجرأ على معرفة سبب قلقه، سلّم عليّ ببرودة، صدرت منه ضحكة خفيفة، شبيهة بضحكة سيوران القاتمة، والدموع نزلت على خديها، ولا تكاد تفارقها طيلة بحثنا عن سعيد، وتهمهم بدعاء خفي، يا رب ساعدنا، وتردد سأموت إذا لم أجده، الحياة من دونه لا شيء، يا رب لقد وجدت فيه الإنسان الذي سيزهر به عالمي الداخلي. المسكينة كأنها على جمر، نرى بهذا أننا في حياتنا نحتاج إلى شخص نزرعه في قلبنا لكي تنبت معه كل أمانينا وتزهر معه جميع مطامحنا، ومن دونه سنحصد اليأس وسنتجرع مأساة حياتنا المعيشة.

بحثنا عن سعيد ولا أثر له، ساعتان ونحن نتجول، وكل مرة نربط الاتصال به والهاتف مغلق، أي فاجعة حلّت علينا؟ وأي أمر نحن فيه؟ أين سأجدك صديقي؟ تعبنا من البحث، جميع الأماكن العامة في الرحاب بحثنا فيها، إلهام أظهر عليها التعب كثيرا، غير قادرة على الاستمرار، وعاجزة عن قولها إنها متعبة، شعرت بالسأم وفقدت الأمل، ونظرت إليّ قائلة: ماذا إذا وقع له شيء يا نديم؟ صرخت بشدة والناس ينظرون، وجثت على ركبتيها، وساء المنظر المارين والعابرين، فبدأوا يحوقلون ويشتمون ويسبون، وقال بعضهم، إن جيل شبابنا أفسدت أخلاقهم، ولا

مسكن أقدر على حصر فساد أخلاقهم من غير القبر، وقال آخر في سخرية هزلة: يتلاعبان فيما بينهما ويضحكان ويمرحان وحينما يقعان في مصيبة يظلان متحسرين، إنه جيل حيونة الإنسان، جيل من الضباع، هذه ظنون الناس، وإن بعض الظن إثم، لم يأت أحد ليعرف سبب بكائها وصراخها، يعرفون الحكم من بعيد، الثرثرة هي رأس مال هؤلاء البشر، لم أكترث لما يقولون، وساعدت إلهام على الوقوف، ذهبنا إلى الحديقة للاستراحة، ولتأخذ نفسا جديدا، تعود به إلى مقر سكنها بالحي، تساءلت إلهام ما إذا كنا نملك مكان معهودا نذهب إليه معا؟ أخبرتها بأننا عهدنا الذهاب إلى المكتبة فقط، وأما يوم السبت والأحد فنقضيه في البيت فحسب، لم تكن قادرة على تمالك نفسها، فعانقتني قائلة لقد ذهب سعيد يا نديم.

بادلتها العناق ونفسي ترتجف من شدة الخوف، لربما إني لم أذق طعم العناق مرة، وخاصة حينما يكون من فتاة، وتكون اللحظة مليئة بمشاعر الحزن، إننا حقا محتاجون لعناقات تتلامس فيها قلوبنا وتتحاور مع بعضها البعض، إن العناق هو البديل الأسمى لبعث الأمل في النفوس، والأمل هو آخر ما يموت في الإنسان، آمالنا محفوظة مع كل عناق نبادله بيننا وبين الآخرين.

تأخر الوقت ولم نعرف ولو معلومة عن الصديق، وإلهام تموت ألما، طلبت منها أن تعود إلى الحي، أنا سأكمل البحث عن صديقي، أخذت سيارة أجرة وذهبت، استلقت على كرسي السيارة متثاقلة ومهمومة، ملامح وجهها شبيهة بمن حمَّرته شمس الزوال في زاكورة، ظاهرها فيه العذاب وباطنها الله أعلم به، أكيد أنه يشتد تألما، وأما أنا فظاهري فيه

البشاشة وباطني فيه العذاب، تساءلت قائلا أين سيكون سعيد؟ ذهبت إلى البيت ربما أجده مستلقيا وفرحا ونشيطا، وهناك أتحدث معه، ونتحاور معا عن مشاكله، وسبب حرقته، كنت أصلا أعلم منذ ليلة البارحة أن لديه خطبا معينا، ولا يريد أن يخبرني به، أو لا يريد أن يزيد من تعاستي، فهو يحاول دائما أن يمنحني أملا في هذه الحياة التعيسة، وأن ينقذني من تشاؤميتي، وأملي عاد من جديد، لما أحسست ببعض خيوط التجاذب مع عاشقة أجاثا كريستي، حتى لقاؤها معي شبيه بالمطاردات البوليسية الشبيهة بما يدور في رواياتها، أجلس وحيدا، وأجدها واقفة أمامي كالمعتوهة.

عدت محطما إلى البيت، أحمل معي الخيبة المؤلمة، وأجر معي بعض خيوط الأمل والتفاؤل. ما بال الطيبين وذوي الفضيلة يتذوقون مرارة العيش، ويساقون إلى مهالك الأمور في هذه الحياة، ويشربون من كأس الضياع، نحن مرغمون للبحث عن مصيرنا المأسوي، ولسنا مرغمين للبحث عن أنفسنا واكتشاف عالمنا المفقود، حتى الحب بالنسبة إلينا مصير مأسوي، لا ضمانة لنا فيه لمعانقة حياة سعيدة، وما بدا لي في إلهام من أحاسيس مظهر لهذا، التي أجرمت على قتل نفسها بهذا التعلق الشديد، والذي قد يكون حيلة من حيل كيد الطالبات، أو عالم الطالبات المغبون، فإنهن يظهرن كل شيء حقيقيا، يهتمن بك ويبادلنك أطراف الحديث حتى فيما يشبع غريزتك، وهذا له مقابل، فإلهام استفادت من سعيد ما لم تستفده من دراستها في الماستر، وبه فرغم إظهارها الصدق في مشاعرها، إلا أنني أدركت أن عالم الطالبات مغبون لن تفهم فيه شيئا، ومتلون مليء بالأكاذيب والأساطير، وقد يظهر صدق إلهام بعد نهاية سنتي الماستر.

دخلت إلى البيت ولا خبر يطمئنني عن الصديق، حاولت أن أتصل ولا مجيب، وفجأة تذكرت عمي الشيخ با علي، إمام مسجد الرحاب الصغير، شخص زاهد ومتعبد، ذو صدر رحب، وصاحب شأن عظيم عند الناس، عُرف بأنه يزرع في قلب الإنسان الإيمان والطمأنينة والمحبة، لطيبة كلامه وبداعته، يعدونه من أهل الكرامات، لأفضاله الكثيرة على إعادة البؤساء إلى طريق السعادة، وكان سعيد يجلس معه بعد نهاية صلاة العشاء أو المغرب، كما كنت أفعل مع الشيخ صالح رحمه الله، يتحدثان دائما في موضوعات مثيرة عن الفقه والفقهاء ومآثر العصر ومفاسده ومحاسنه، ومسائل الخلاف بين المذاهب، ولا مخافة لسعيد في حديثه عن هذه الأمور رغم تخصصه الأدبي، إلا أنه يعلم هذه القضايا التي قرأ عنها سنوات الإجازة، أثناء تردده إلى دروس بعض الشيوخ في المجال.

قد أعجبت "ببا علي"، نظرا لابتعاده عن التزمت والتشدد، لا يوبخ الآخرين، ولا يحرقهم، ولا يستفزهم، ويضمهم إلى صدره، ولا يلوم فساد أخلاق شخص ما، وإنما يطلب له الهداية والثبات من عند الله، وينصحه ويرشده بكلام يكاد يكون مهموسا في قلبه، ما أحوجنا إلى شيخ مثل عمي علي، يخاطب قلوب الناس ويستميل عقولهم ولا ينفرهم ويبغضهم، كان الشيخ ملاذا روحيا للناس، لا يكل ولا يمل من كثرة توارد الناس عليه، وإن كنت عبوسا قمطريرا فلم أعتب بابه يوما، ولم أسع للذهاب عنده، فسعيد أقرب منه؛ لأنه يتحاور معه في تخصصه وأعجب بشخصيته كثيرا، وبسمته الحسن، وأخلاقه العالية، وضحكاته الدائمة، وابتسامته المشرقة.

فكرت في الذهاب عند الشيخ لعلي أجد الصديق هناك، خرجت بنفس اليأس الذي شدني بعد هروبه، واليأس نبتة منغرسة الجذور في جسدي، منذ تعقلي هذا الوجود المضل، بينما أنا ذاهب إلى الشيخ، رن هاتفي، كانت إلهام هي المتصلة، تسأل عن جديد سعيد، أخبرتها بأنني لم أجد له أثرا، تعالى بكاؤها فتركت خط الاتصال وهي تردد، ما أشد رحيلك عليّ، أرجوك لا تتركني يا سعيد. قطعتُ الاتصال، فلم أستطع أن أهدئها، عدت إلى نفسي أخاطبها، وأعرض في داخلي صورة صديقي، الذي يمتلك ضميرا إنسانيا، شبيها بأسطورة نيمسيس صاحبة الضمير الإنساني والعدلي، التي تريد زرع روح الضمير في الإنسان، وبهذا ندرك سبب لجوء الإنسان إلى الآلهة، إنما غرضه جعل العالم إنسانيا.

وصلت إلى بيت الشيخ وطرقت بابه، وكانت الساعة وقتئذ الثامنة والنصف مساء، وهي آخر آمالي لإيجاد الصديق، فتح الشيخ الباب، والبسمة تعلو محياه، ومجارف الشيخوخة تزين وجهه، فكأنها أرض مليئة بشقوق، تنبت أي حبة تسقط فيها، وتحيي قلوب الناس الجارفة، المصابة بالجفاء، وتكلم قائلا: ما خطبك يا بني؟ لا بد أنك تسأل عن صديقك سعيد؟ عادت الدماء وتحسن نبض قلبي في تلك اللحظة، تطايرت فرحا، بعد سماع قول الشيخ. أخبرته أنني كنت أبحث عنه منذ مدة، ولم أجده، وعدت إلى البيت، وتذكرت أنه قد يكون هنا معك يا عمي الشيخ، ضحك ضحكة صاحبتها وعكة خفيفة، وقال: لست شيخا يا بني، لا تسرف في كلامك، تفضل واجلس، فسعيد نائم الآن، قال عمي علي: لقد جاء إليَّ وفي قلبه مشاعر شتى، وتحدثنا طويلا، لقد تعب من البكاء، بسبب صدمة الخبر الذي جاءه من أمه ليلة البارحة، ولم يخبرك بذلك. جلست ورأيت سعيد مستلقيا، تظهر عليه علامات الألم في وجهه، قال الشيخ: لقد أكل

قليلا ونام ساعة من الوقت حتى الآن، ولا تقلق ستتحسن حالته حينما يستيقظ.

قادتني جلسة انتظار استيقاظ سعيد إلى إطالة الحديث مع عمي الشيخ، والتقرب منه أكثر، والتحاور معه في مساوئ الدنيا، وكيف قادها المال إلى فسادها، وعرفت معه ما لم أعرفه من مشاهير الفقهاء الذين تم تغطيتهم وتسويقهم إعلاميا، يبدون كلمة واحدة على الشاشة فتلقى اهتمام الناس واستأثرهم، وهي في جوهرها لا قيمة لها، شيخنا إذا نطق بكلمة حركت فيك مشاعر ماضيك وأنهتك عن مطالب مستقبلك، وأخرجتك من أسجانك وأشجانك. كان منزل عمي الشيخ هادئا، تملؤه السكينة، وتسكنه الطمأنينة، شعرت بسكينة شبيهة بإحساس المتصوفة في وحدتهم الإيمانية، هم في عزلتهم أقرب إلى أنفسهم، وبهذا يفهمون الناس، ويلبون مطالبهم.

فجأة، تذكرت إلهام، لم أخبرها أنني وجدت سعيد، استأذنت شيخي بالخروج للاتصال بها، وقبل ذلك وجدت أنها اتصلت مرات عديدة، ولم أجب، كنت قد وضعت الهاتف في وضع صامت، اتصلتُ بها وأجابت بسرعة، و أول ما قالته: قل لي إنك وجدت صديقك، أرجوك أخبرني، لم أر طعما اليوم، ولم أذق نوما، أخبرتها أنني وجدته في منزل عمي الشيخ، جاء عنده ليشتكي إليه أمرا حلَّ به ليلة البارحة، وهو نائم الآن ولم يستيقظ بعد، وأرادت الاستفسار حول وضعه، وأجلت ذلك إلى الغد، فقطعت الاتصال.

دخلت ووجدت الصديق مستيقظا، أحسست برعشة الاطمئنان، لم أتمالك نفسي حينما رأيته، سارعت إلى معانقته، ضممته إلى صدري،

ولم ينبس ببنت شفة، حركته ليتكلم، وأخبرته بالقلق الذي عشته لما أخبرتني إلهام بهروبك من المقهى، قلت له: بحثنا عنك في أماكن متعددة، ولا أثر لك، كأن دروب الرحاب بلعتك، وبعدها عدت إلى البيت غضبان آسفا حينما لم أجدك، ولكن لما تذكرت علاقتك الطيبة مع عمي الشيخ، جئت عنده، فأخبرني بأنك نائم، وجلست معه، نتحدث ونتناقش، والصديق لا يقدر على رفع صوته، إنما هو كمن يتكلم في بئر. قال الشيخ لسعيد: إن صديقك يحبك كثيرا، لا تفرط فيه، لقد قلق عليك، لدرجة أنه تتعتع في كلامه لما فتحت له الباب، وملامح محياه مسودة، من فرط ما لقيه بسبب البحث عنك.

وضع شيخي يده على رأسي، قائلا لا فرّق الله بينكما، وأسأله أن يديم محبتكما، قلت للشيخ: لقد اتفقنا يا عم أن يكون البيت الذي يجمعنا بيتا يضمنا في كل شيء، في أحزاننا وأفراحنا، ولكن سعيد لم يفعل ذلك، جاء عندك دون أن يخبرني بشيء ما. طلب الصديق السماحة وأعتذر، وكانت نيته أنه لا يريد أن يشوش عقلي، وأن يزيدني تشاؤما، فربتت على كتفه، وقلت له: أي تشاؤم وأي تشويش؟ لقد بتنا مستيقنين أن الاحزان تسكننا ولا تسقطنا، بل هي تزيدنا قوة لنتجاوزها إلى أحزان أخرى تليق بنا. قلت لسعيد: لولا عمي الشيخ لقدر الله كيف ستكون حالتك الآن؟ ضحك سعيد، ونظر إلى الشيخ فشكره على جميله، فقال الشيخ: لا تقل هذا يا بني، لم أقم بشيء، قم الآن ورافق صديقك، ولا تتركه مرة أخرى، شارك معه ما يضرك، ولا تخف عنه شيئا. شكرت الشيخ على أفضاله الكثيرة مع صديقي، وردد قائلا: البيت بيتكما واللحاف لحافكما، اذهبا بطريقتكما الفضلى.

عدنا إلى البيت، وسعيد لا تظهر عليه ملامح الراحة، وآلامه لم تخمد بعد، كنت أستفسره عن سبب ما أصابه، لكنه رفض الحديث عن موضوع ما أصابه، كانت حالته لا تبشر بالخير، جسمه متعب، أيُّ مصاب أصابه حتى يكون هكذا؟ تغيرت صورته جذريا، لقد كان كثير الضحك والمزح، لم يعد كما كان، لبس لباسا آخر، لا أعرف هل يعود إلى صورته المعهودة أم لا؟

استيقظت صباحا وسعيد لم يستفق بعد، ولدينا حصة الأدب العالمي، مع أستاذ يستلهمنا بكلامه، ويستهوينا بأسلوبه الفريد، وبمعارفه الغزيرة، وبطرق تعامله مع الطلبة، والصديق النائم يتشوق إلى حصصه دائما، وما عساه في ذلك اليوم لم يحرك ساكنا، قلت: لا أعرف ما به، لا يريد أن يتحدث، حاولت إيقاظه، استفاق متثاقلا، ورفض الذهاب إلى الكلية، لشعوره بالقلق وحالته سيئة جدا، وصوته يتقطع بسبب شهقات البكاء التي ما زال أثرها منذ ليلة البارحة، ألححت عليه أن يقوم، لكن أصر على عدم الذهاب، تركته في راحة ووداعة، وذهبت وحيدا للكلية، ولما دخلت إلى الفصل، أقبلت عليَّ إلهام بشغف تسأل عن حال سعيد، ولماذا لم يأت معي؟ كذبت عليها بأن لديه شيئا مهما، لذلك لم يحضر، وكان يظهر عليها أنها لم تصدق كلامي. دخلنا الفصل وهي غير مطمئنة، ساكنة لا تتحرك، واضعة وجهها على يديها، بقيت أنظر إليها دون فعل شيء، وبعدها تفاجأت مباشرة بنظرات ندى، بدأت تتأمل ملامحي وتتصفحها، وتتبين حالي، لعلها تصل إلى تشاؤم أشد من التشاؤم المألوف في الفصل.

نطقت قائلة: اليأس كعادتك يا نديم، هيا اجلس بجانبي فحصة اليوم ستكون ماتعة، همست قائلا، أيُّ متعة وصديقي سعيد لا أقدر على

مساعدته ومعرفة مشكله؟، جلست بجانبها وبدأنا نتبادل الكلام فيما بيننا عن محاسن أستاذنا، الذي يعلمنا التفكير والنقد ويقول لنا دائما: اعلموا أن الجامعة لا دور لها في جعلكم أدباء ومفكرين، بل اجعلوا من أنفسكم ذلك بممارسة القراءة والكتابة يوميا، يقول: إن أفضل سلاح يمكن أن تواجهوا به واقعكم المأسوي هو التسلح بالكتابة. تماما جميع الطلبة في الفصل يشيدون بالأستاذ، وإنّ سعيدا من الولهين به، يظل يقلده في لغته وأسلوبه، ويتتبع نصائحه وإرشاداته، قالت ندى: إن موضوع اليوم هو فن الرواية، وقد قرأت عنه كتابا جميلا لصديقك ميلان كونديرا، ابتسمت ابتسامة خفيفة؛ نوهت فيها بجودة الكتاب الذي قرأته.

إن كنت أتحدث معها في تلك اللحظات، فعقلي كله مع الصديق، انتهت الحصة في جو ظريف لطيف، عمه نقاش ماتع، أبرز فيه الأستاذ أهم المدافعين عن فن الرواية، ومهد بالبدايات الأولى لها، وختم المحاضرة بآراء كونديرا حولها، بالتركيز أساسا على الكتاب الذي قرأته " ندى"، التي أصبحت خلوتها مع الكتب فقط، تخلو مع الكتب حتى يناديها النوم بالراحة، وإذا رأيتها في ظاهرها تظن أنها مثل الطالبات المسامرات والليليات في الحي، فهي ذات لباس عصري، وتظهر شعرها الطويل للعيان، دون أن تكترث لآراء الناس ومقالاتهم. بخلاف صديقتها آمنة المحجبة المدعية لشيء ظاهر لا يوجد في باطنها، وإن كنت أسيء الظن فتصلني عنها أخبار كثيرة يتم الهمس بها داخل الفصل، من قبيل ما يسمى بالنكاح الفيسبوكي مع أبي البنات، مسعود المشهور، ولكن سمعي لا يصغي لأحاديثهم، فما لم تر عيني لن أصدقه أبدا.

ولما أردنا الخروج سألنا الأستاذ، عن سعيد، قائلا: أين زميلكم التراثي الفصيح، تغيب عن حصة اليوم، لم أجد له همسا اليوم ولا أثرا، يغني به نقاش اليوم، أرجو أن يكون بخير، أخبرته بأنه في موعد حاجة ذهب ليقضيها.

ضحك الأستاذ ضحكة أمل، فقال: لا تفرط في ذلك الصديق، إنه باحث رصين ومجد، ونطقت إلهام قائلة: إنه لطيف أيضا أستاذي، لا يرد لنا طلبا، ولا تشق عليه المساعدة، ويظل دائما بوجه بشوش، وبدأ الطلبة ينظرون إليها وينصتون إلى كلامها، وبعدها قال الأستاذ مازحا: أرى مصارع العشاق ههنا، ارتفعت قهقهات الطلبة، وأحست إلهام ببعض الخجل، ولم تنبس ببنت شفة، وجدت الصمت أنسب لها. حرك الأستاذ رأسه، فأشار إلينا بالخروج، خرج البعض، والبعض الآخر اجتمع عليه، ليسألوه أسئلة ما، أو يستشيروا معه في أمر معين، أو ليظهروا له أنهم طلبة مجدون ومهتمون بالمادة، وأنهم تخلّقت لديهم إشكالات متعددة، يريدون البحث فيها مستقبلا، أو أنهم يسعون لتنظيم ندوة علمية، يتم من خلالها الإجابة عن تساؤلات الطلبة المعرفية، هذا هو عالم الطلبة، مليء بالحركة والضجيج.

خرجت من القسم مهرولا، والساعة تشير إلى الواحدة إلا الربع، وأنا أنوي الذهاب إلى البيت، لأدرك سعيد، وأعلم منه الخطب الذي حلّ به، سئمتُ نفسي هذا الصباح، حتى الدرس مر عابرا، لم يكن عقلي معه، ولم أنتبه حتى لأحاديث ندى، لم أرع أي اهتمام لما قالته، عقلت منها رأيها في كتاب فن الرواية فحسب. وأنا أخرج من باب الكلية، سمعت صوتا أنثويا رقيقا ينادي باسم نديم، صوت يشبه رنين ندى، أدرت رأسي إلى الوراء، إنها

ندى، رأيتها تهرول نحوي، لا أعلم خطبها، كل ما لدي من كلام قد نفد في القسم، بم سأحدثها وتحدثني، لتكن شهرزاد، ولأكون شهريار، أبقى صامتا، وتملأ هي جو المحادثة بالكلام المباح، توقفت أنتظرها، وصلت وخاطبتني قائلة: أدركتك أخيرا، خرجت كالبرق من القسم، ما خطبك؟ ما بك اليوم لم تطل الكلام معي؟ هذا غير معهود فيك معي.

علمت مني أن صديقي سعيد ليس بخير، وأنني أسرعت للحاق به، وإدراكه لأطمئن عليه، تحسرت بعدما سمعت ما أصابه، ودخلت في الموضوع مباشرة، بأنها كانت تريد أن تعرض عليَّ أن نراجع مساء في المكتبة؛ لأن مساء الاثنين فارغ، ولا شغل لدينا غير القراءة، تعذر حصول ما ترغب فيه ندى، تفهمت المسألة ولم تصر على الدعوة، إن حالة سعيد أنقذتني هذه المرة من لقاء في مساء كامل مع ندى، أجزم فيه أنه لن يكون في المراجعة كلية، الصديق ينقذني حتى في غيابه من الاصطدام بندى وملازمتها وقتا دائما لا منقطعا في الكلية.

أطلقت سراحي، ولم أكد أودعها حتى وقفت إلهام تخاطبني، أريد الذهاب معك إلى الرحاب، لأطمئن على حالة سعيد، فلم أنم ليلة البارحة، لقد رأيت في ملامحك صباحا، أنه لم يذهب لقضاء حاجة ما، وأصلا لم تحدثني عن ما حصل له، حينما اتصلت بي وأخبرتني أنك وجدته، ولم أعرف منك تفاصيل ما نزل عليه من ثقل، همستُ في خاطري، أي مصيبة تحل على الواحد إذا تعلقت الفتاة بشيء ما؟ إنها تقدم كل شيء لتظهر له، أنه الشخص الوحيد الذي تبصره من بين رجالات العالم، تقوم بأشياء جنونية دون وعي، توظف جميع مقوماتها، حتى المحظورة منها، التي تعد

السلاح الأخير الذي تمتلكه، وتستغله لتكتسب ثقة عشيقها، لكن إلهام لم تصل إلى هذا بعد.

أحاول البحث عن مبرر ما، أتخلص به من إلهام، ولكن لن ينفع معها شيء، ستصر كثيرا، ولا قدرة لي على إقناعها لكي لا تذهب معي، لا علة أقدمها لمنعها، فقررت أن تذهب معي، أما ندى فقد ذهبت إلى المكتبة، مسكنها ومرتعها، لم تنتبه لما أقوله مع إلهام، وفي وقت مفاجئ جاءت صديقتها آمنة، سلمت شيئا لندى، ثم مرت أمامنا ملقية السلام، دون أن تقف معنا، مرت بسرعة البرق، بقينا ننظر فيها وهي تهرول، وكأنها في موعد مع شخص مهم. مازحت الصديقتين، فقلت: إنها ذهبت لتصلي وتعبد الله، ألا ترون أنها شبيهة بجلسة المتصوفة في القسم، لا نسمع حسيسها، هي مجرد أمانة جامدة، إنها في الحقيقة لا تعرف معنى للكلام، والغريب حينما تكون في الساحة مع الطلبة، أراها مرات ومرات مداومة الوقوف والحديث مع مسعود أبي البنات، وأما نحن فلا مقدرة لها على الحديث معنا.

فضحكتا بهمس، وقالتا: دعك منها، فهي فتاة متدينة، ولا تحب حديث الطلبة. لم أزد على ضحكتي الخفيفة، سوى توديع ندى، ومصاحبة إلهام معي في الطريق إلى رؤية سعيد، وصلنا البيت، وأمرتها بالانتظار في الخارج، دخلت وبدا لي أن الصديق استيقظ؛ لأن ضوء البيت المعتم مشتعل، لقد كان الصديق غارقا مع كتبه، مستأنسا بها، ومتعالجا بمنافعها، يداوي جرحه بالكتب، وظهرت على وجهه بعض التباشير الموحية بأنه بخير، وبعد دخولي المباشر، سلمت عليه، فأخبرته أن إلهام تنتظره في الخارج، وتريد أن تراه، بقي ساكتا مدة حتى تكلم بكلام خافت، سمعت منه وشوشة فقط، لم يفصح بشيء يبلغني معنى مفيدا.

جلست، وأنتظر أن يقوم إلى إلهام، ولم يقم، وأخبرته مرة أخرى، ولكن رفض لقاءها، وأصررت على أن يذهب، فالفتاة أتت من أجله، قال: لا ينقصني سوى صداعها يا نديم، لم تعد الحياة حلوة، طعمها مرير، تكدرت حياتي منذ ليلة أمس الأحد، وددت لو شققت الأرض حتى أدخلها، أضحى الإنسان متبعا لما تقول عنه الإله الجديد، فظيع حقا، وستكتشف فظاعةً مؤلمة، حينما أخبرك بخبر نزل علي كالصاعقة، دعني الآن أرى ماذا تريد تلك المعتوهة والمجنونة، خرج سعيد، وتفاجأ بعناق مصحوب بدموع الشوق من قبل إلهام، بقي الصديق مصدوما، أحس باضطراب، لم تكن له ردة فعل سوى الارتخاء، إلى أن بادلها العناق نفسه، اكتشف أن في العناقات تضمد الجروح، وتختفي بعض المعاناة، ويحس المتعانقان ببعض الطمأنينة، وأصدق عناق هو الذي يأتيك وأنت لا تملك شيئا، ويعرف الآخر أنك لا تملك شيئا، استمر عناقهما مدة طويلة، حتى أخبرت إلهام سعيد: أنها قلقت عليه كثيرا، وكانت تود أن تعرف منه ما حصل له، حينما هرب أثناء مراجعته معها في المقهى، لم يقل شيئا سوى أنه اعتذر منها، وألحت عليه، فخبّرها بأنه سمع شيئا مؤلما من أمه، فشده ذلك وأزّمه كثيرا، فذهب عند الشيخ ليحكي له أمره.

ولأن تفاصيل الحادث ستطول، فقد جاء عندي الصديق، فقرر أن نذهب إلى الحديقة ومعنا إلهام، ليحدثنا عن الأمر الذي حلَّ به، وافقت على ذلك، رغم أنني شعرت بالجوع في تلك اللحظة، وطلبت منهما أن يذهبا إلى أن آكل شيئا، وألتحق بهما، تم الأمر، وألحقت بهما، ووجدتهما سارحين في الكلام، تائهين، وبدا على حديثهما الحزن والألم، ورأيت عينهما محمرتين من كثرة البكاء، اقتربت منهما، وجلست بجانب الصديق، وجدتهما قد تحدثا في كل شيء، وسردا معا حكاياتهما، رغم ذلك أعاد عليّ سعيد ما

حكاه لإلهام، سمعت منه أن أباه الذي يحدثني عنه بسمت أخلاقه الحسنة والطيبة، ومحاسن القيم، بأنه طلّق أمه بسبب تمنُّعها عن أخذ ارثها من أسرتها بعد وفاة أبيهم، لم ترغب أمه في أخذه، لحاجتهم إليه كثيرا، تركته ولم تأخذه، ليكون مصرفا لجنازة أبيها، وتزامن ذلك مع عرس أختها نهاد، فقررت تركه، فأثار ذلك حفيظة أبيه، فهددها بالطلاق، وأمه لا تملك سوى أختين، نهاد وجميلة، ولا تملكان دخلا بعد وفاة أبيهما. إلا أن أب سعيد، شعر بالطمع، وتعامت بصيرته، وعاد إلى أرذل العمر، لمّا رأى في زوجته كنزا ثمينا، يحقق به مطالبه وآمانيه ومساعيه.

أمّ سعيد رفضت، والأب أصر على أخذها للإرث، ولما استحيت من مخاطبة أمها في ذلك، وترك أختها بلا مأوى، قرر أن يطلقها، وهذا أمر أفجع الصديق وأيأسه وأتعسه. حقا مقبلون على كارثة فظيعة ولا إنسانية، إلا أننا مجبرون على تقبل ما نسبح فيه. لقد غرقنا في الفظاظة المملة.

خاطبنا سعيد فقال: كنت أرى في أبي رجلا تقيا مؤمنا صالحا، كثير النصح والإرشاد، ولما سمعت صنيعه، أحسست بالصدمة، فآخر ما يمكن أن أتوقع منه أن يرتكب فعلا كهذا هو أبي، فعله لم أتقبله، ترك أمي بسبب المال، تركنا بسبب المال، واستدرك قوله متسائلا: أي شيء فعلنا لنولد؟ ونصادف مثل هذه المآسي، حياتي الآن أصبحت بلا طعم، البطالة والدراسة في الجامعة، وطلاق أمي، وحال إخوتي، آيمن وخالد، وأروى وسعاد، ما زالوا بريئين، لا يعلمون أنهم مقبلون على مرارة فظيعة، وأنهم ولدوا ليزيدوا في نسبة المعاناة، اشتدت حالتي، واختنقت كثيرا، تظلمت الدنيا.

تحسرنا لحاله، ضممته أنا إلى صدري، وإلهام غارقة في البكاء، فاضت أحاسيسها بشدة، ونحن الفقراء لا نملك شيئا نقدمه سوى الأحاسيس، تغيرت أحوال سعيد، ملامحه لا تعرف إلا الحزن، وكأن حزنه هو مطمحه الوحيد ليستمر على قيد الحياة، أصبحت إلهام بجانبه تواسيه وتؤنسه، تقدم له كل ما ينقصه، تلاشت فيه إلهام، وأصبحا ذاتين في ذات واحدة.

13

ندوة المجاملات

بعد أسبوعين من حادثة سعيد، استعاد حاله، وتداوى وتعافى باللقاءات المستمرة مع إلهام، وفور انتهاء الفصل الثالث، عقد منسق الشعبة لقاءً مع الطلبة، وتم الإقرار فيه على تنظيم ندوة حول الخطاب السياسي: آفاق ورؤى، من قبل بعض أساتذة الماستر، وأساتذة خارج الكلية، فسهرنا نحن الطلبة على اللجنة التنظيمية، بإعداد المدرج وتهيئه يوم الثلاثاء، قبل بدء الندوة بيوم، وكالعادة فأشباه الطلبة يتحمسون لمثل هذه المناسبات، ويخططون ويقررون، تراهم في الكلام والاقتراحات هم الأوائل، يعجبك قولهم وتنفرك أفعالهم، وأثناء العمل يصطفون جنبا ويتحدثون في لا شيء، يمثلون مسرح اللامعقول، اجتمعنا على كيفية توزيع الأدوار أثناء الندوة، ثم الحضور لتهيئة المدرج يوم الثلاثاء، على الساعة التاسعة والنصف مساءً، حينما حضرت أنا وسعيد إلى الكلية، لم نجد أحدا سوى الإداري المكلف بمدرجات الكلية، وصلنا في الوقت المحدد، وبعد مضي ربع ساعة من مجيئنا، أقبلت بعض الطالبات، جئن يتحدثن ويقهقهن فيما بينهن، وكانت ندى وآمنة وإلهام بينهن، أقبلن علينا، قائلات: المجدان المتميزان، التراثي والحداثي سبقونا، وظلا ينتظران في الفراغ، وتسألن عن الآخرين؟

أجبتهن بأننا جئنا ولم نجد أحدا، ضحكن وقلن ننتظر نحن أيضا قليلا، إلى أن يأتي الآخرون، وبالنظر إلى الأصدقاء، فقد رأيت إلهام توزع نظراتها على سعيد فقط، الذي انزوى وحيدا لم يتحدث، وقد ألف

الحديث والضحك والدعابة مع الطالبات، أما الآن فقد تاب عن ذلك بسبب أحزانه. مشغول بما نزل عليه من الأحزان، لم يعد يهتم بأحد، لا رغبة له في إطالة الحديث مع أحد، لا يكاد يصدق أنه سقط في خدعة الحياة، التي قابلها بوجه البشاشة واللطافة.

كنا ننتظر لمدة نصف ساعة، والبقية لم تحضر بعد، بقيت أنا أتحدث مع ندى في الإشكالات المطروحة في موضوع الخطاب السياسي، وآفاقه ورؤاه، فلا موضوع غير موضوعات الدراسة أرتاح فيها، رغم أنني أحمل في قلبي مشاعر فياضة، وبدأنا نناقش أيضا في طبيعة الأساتذة الذين سيلقون ورقات علمية في هذه المسائل، كنا متحمسين بشدة، للندوة وآفاقها.

حديثي مع ندى له طعم خاص، لا يشبه الأحاديث العابرة مع الأصدقاء العاديين، لا أعلم طبيعة الإحساس الذي أحس به، لم أعد أحس بالسأم، أمسيت أبادر إلى الحديث معها، ومناقشتها، هي الطالبة الوحيدة التي قدمت معرفتها وثقافتها على الإثارة والمثيرات الخارجية، لم أتناقش معها فيما تحبه في لباسها ومأكلها، وما تكرهه في حياتها، لم نخض في التفاصيل التي يسكن فيها الشيطان، حوارنا يشق مفترقا قرائيا، يغوص في منابع الكتب ومقبرتها، رابطنا هو عالم الكتب، ولا شيء آخر غير الكتب.

أستحضر قول الصديق حينما تنبه إلى لقائنا الأول، لما قال: إن ندى سترويك، هذه العبارة لم تفارقني، ولا تفارقني، ففي كل لقاء يتم بيننا، أتحسس أن قبسا يشتعل في داخلي، لربما مواصفتها، سقطت في صندوق أحلامي، هي التي كنت أحلم بها قديما، إلا أن قبسها وقع بين شيئين، بين حلم انبنى قديما، أبحث فيه عن مؤنسة وبين فكر جديد، أعتبر فيه

الزواج منعرجا خطيرا، نقف فيه على شفا حفرة أخرى، لا نجاة لنا منها، أيكون الحب مغيرا لجميع هذه المعتقدات، وهذه الأفكار، إن الحب يقودنا نحو تغيير مفهوم الحياة الواقعي إلى مفهوم آخر، من حياة الشقاء إلى النعيم، ومن الضلالة إلى الهناء، من الهزيمة إلى الانتصار.

بقينا نتناقش، فجأة لاحظت حدثا مؤلما، عناق آخر من قبل إلهام للصديق، كانا يتحدثان في أمر ما، يفكان عن نفسيهما ثقل هموم النصر، ويخففان عنهما أعباء الدنيا، بما تجود به علينا من مصائب، قالت ندى: إنه موقف رائع يا نديم، ليتنا نجد من يعانقنا ليضمد آلامنا التي لم نبح بها لشخص ما، ووقعت أنا في حيص بيص، لا أعرف الطريقة التي أتناول بها مثل هذا الكلام، وأفكر في رد سريع، يخفي عني خجلي واضطرابي، قلت في خاطري: أيعقل أن يجمع الله شتاتين كتما أمر معاناتهما وأحزانهما عن الآخرين؟ لم أتشارك أحزاني مع فتاة ما، ولربما إن ندى أيضا، لم تبح بآلامها لأحد، يعني هذا، أن لنا نظرتين متشابهتين، وإحساسين يلامسان بعضهما بعضا في اللقاء، فينبض القلبان معا.

جعلت من نفسي أنني لم أفهم شيئا، فقلت: إن العناق جناح من أجنحة جبريل، يحمل قلوب العاشقين ليتعانقا في عالم نوراني رباني، وضحكت قائلة: الحب لا يريد كل هذا التعقيد يا نديم، تلك العبارات المسبوكة والمصفوفة التي يسبكها المتصوفة معقدة، ولا نقدر عليها، الحب شيء بسيط، به تحيا قلوب الناس الميتة، فأجسام البشر اليوم بلا قلب ولا إنسانية. لم أكد أنطق بكلام، حتى نادت الطالبات، لقد التحق أربعة طلبة فقط، ومن بين الطلبة مسعود أبو البنات.

اجتمعنا في المدرج، لنجهزه ونهيئه، تحمس الطلبة في الأول، وبدأنا نزين قاعة المدرج، ونجرب مكبر الصوت، ولم تمض إلا نصف ساعة حتى تراجع بعض الطلبة، مجتمعين في زاوية يتحدثون ويضحكون، أما أنا والصديق سعيد، وندى وإلهام، وخديجة الملقبة بالضاحكة، فبقينا نجهز ما تبقى، وقمنا بمسح الكراسي، وإلصاق ملصقات خاصة بالندوة، وإحضار كل ما يخص قاعة المدرج، ومن بينها صورة الملك، التي قالت عنها إلهام، وكنت بجانبها: عياشيون في كل مكان، يعلقون الصورة كأنهم سيتبركون من بركته، فشدتني ضحكة فيها بعض اليأس، فقلت لها: لربما لم يخبرك سعيدك عن إمارة المؤمنين في المعتقد الجاحظي، فهي ضرورية لحفظ الأمن والسلام، وإن لم يكن هذا متحققا، ابتسمت، وأدارت رأسها نحوه، ونظرت إليّ قائلة: لا علم لي بهذه القضايا الاعتزالية، فلست في مستواكما.

كان سعيد يهيئ أسماء الأساتذة المشاركين بعد طبعها من الإدارة، ولم ينتبه إلى حديثنا، وندى التي تعمل بجد، فقد بقيت مع خديجة تنظفان الكراسي، وتهيئان الورود، وأما بقية البنات فقد اجتمعن مع مسعود، وبعض الطلاب الذين حضروا، فقد كانوا يجلسون على كراسي المشاركين، ويلتقطون الصور، دون أن يحسوا بالملل من ذلك، أمثال هؤلاء الطلبة يجسدون عالما من الرذيلة والمذلة، تتعجب من حماسة أقوالهم في الاجتماع وتجمعات، حتى تكاد تظن بقولهم أنهم سيصنعون معجزة ما، ويفتحونك على تخطيطات لا متناهية، العمل الجماعي فيه تتعرف على القلوب الطيبة وتلتقي بالرجال الذين يقفون معك إلى آخر رمق.

لما انتهينا من تجهيز القاعة، استرحنا قليلا، وجاء الطلبة القابعون في أمكنة النزهة لما كنا نعمل يقولون: ما شاء الله عليكم، وينادون لنلتقط صورة جماعية، نغري بها الغائبين، وهم لا يعلمون أن حضورهم أفظع بكثير من غيابهم، ونطق طالب: ماذا سنفعل مع الذين لم يأتوا؟ سنعاقبهم جميعا، تحدثت خديجة بنبرة حادة، فقالت: دعونا من هذا الكلام الفارغ، ماذا فعل الحاضرون حتى يفعله الغائبون، اعتذرت وانصرفت، لم يعتد على خديجة هذا الغضب، أكيد أنها غير قادرة على تحمل مقدار كبير من النفاق، والسخرية والاستهزاء، وبعد انصراف خديجة، انصرفنا معها، دون إطالة الثرثرة مع المتحدثين من المستهزئين.

في مساء يوم الأربعاء، مع الساعة الرابعة، بدأت الندوة، وبدأ الحضور يحضر بكثرة، تسابق الغائبون عن تحضيرات الندوة إلى المبادرة للقيام بأعمال خيالية تصويرا وتوجيها، وأما الحاضرون الذين اعتبرونا مهرجين أثناء التحضيرات، فقد أظهروا أيضا جدّتهم، تسابقوا إلى الظهور في الصفوف الأمامية، ليظهروا أنهم العاملون على أشغال الندوة، وأنهم الذين وقفوا وما قعدوا، إن تلك المناظر تقترب من أفعال الشياطين، وأظن أنه لن يكيد بنا الشيطان هذا الكيد، ظننا أن الطيبة التي تظهر عليهم غير محفورة عليهم، ولما رأيناهم على تلك الحال، وبذلك الحماس الزائد، تنحينا جانبا، وتركناهم ليفعلوا كل شيء، هم شبيهون بتلك الفتيات اليائسات، الراغبات في الزواج، واللواتي يحتجن إلى سد حاجتهن، فيذهبن إلى العرس بزينة وجمال بهي، فيقمن إلى الوسط لخدمة جموع من النساء، حتى تنتبه إليهن امرأة تبحث لابنها عن عروس جميلة بهية، وقادرة على تحمل أعباء البيت، همهن اصطياد زوج، ولو لم يكن يعرفنهن، فكذلك هؤلاء الطلبة الذين لم يحضروا أثناء التجهيزات الأولية، فحضروا

أثناء بداية الندوة، لتتعين للأساتذة رؤية جدتهم وحسن عملهم، ورغبتهم في نجاح المخفل العلمي، عفوا المحفل، طمعا في مكانة، أو رغبة في تحصيل نقطة جيدة. الأمران متشابهان، لا فاصل بينهما، كلاهما يتعالقان مع المنفعة والطمع في الظهور، أما نحن البسطاء فلا نملك إلا وجها واحدا اعتداه الجميع في الكلية.

كانت ندى تقف أمامي؛ والندوة لم تفتح بعد، وقالت لي: الآن بدأت أعرف سر مفارقتك لهؤلاء الجماعة المزيفة، بدأت أعي أسرار ولوجك إلى ذاتك فحسب، مواقفك تتضح مع الأيام وحوادث الزمان، أنظر ماذا يفعلون، يظهرون أنهم الذين قاموا بكل شيء، حتى مسعود رمى بنفسه بينهم، أنظر إلى صديقتي التي تبتعد عن التجمعات الذكورية، ألقت بنفسها تستقبل الحضور، فاتحة شدقيها، لا نعرف المُستَمد الأخلاقي الذي يغتنون منه، لا نعلم هل يملكون ضميرا يجعلهم يحسون بحقيقة ذاتهم قليلا، وفي حسرة صاحبتها ضحكة سخرية، قائلا: أتعرفين سر تفوقنا عنهم؟ يا عاشقة أجاثا، ويا شهرزاد المستقبلية، لم أتمم اطرائي حتى قاطعت كلامي، فقالت: أنتم الناس أيها الأدباء اتقوا الله في قلوب الطالبات البريئات، وصاحبت الضحكة تحوريها لبيت أحمد شوقي، فرددت قائلة أصبحت شوقية، رددتها وهي لا تدري أن أشواقها حقا بدأت تستوطن قلبي، وبلغة حربية تستعمر قلبي، وبلغة رافعية لما دخلت أشواقها قلبي غلّقت الأبواب، فأبت الخروج، لقد كانت مسامرتي الليلية تبدأ بالقراءة وتنتهي بالقراءة، وأما الآن فأنا في الليل يوسفها، فليلي يبدأ بالقراءة وينتهي بأشواقها، ندى قمرية سرقت قلبي، يقولون: إن القمر سرق ضوء الشمس، وهي سرقت قبسي.

انطلقت أشغال الندوة، وبدأ المشاركون يلقون ورقاتهم التي يقال عنها علمية، أما ما يزكي حقيقتها، فهي مجرد ثرثرة لا محل لها من الموضوع، استمعت إلى جميع الورقات بتأن تام، وبعقل حاضر، وآسفت كثيرا على الصورة المضخمة التي أعطيت للندوة، تضخيم يناسب التقعير، تضخيم الندوة شبيه بمقابلتها مع المرايا المقعرة فتظهر صغيرة ومشوهة، إننا عالقون في عالم أمست فيه الشهرة المحدد الرئيس لسمة المثقف والأساتذة الجيدين، الأمر معكوس في الواقع بخلاف ما يتم تصويره تشهيرا، أساتذة معرفون في حقل تحليل الخطاب السياسي، ومشهورون كثيرا، كنا نسمع عنهم فقط، ولكن تلك الصورة المعلقة في أذهان الناس وفي أحاديثهم عنهم، بدت مجرد زيف في الندوة.

كلمة واحدة ألقاها أستاذ جاء من كلية الجاحظ، حقيق بها أن تسمى كلمة وورقة علمية، أما البقية فاللغط هو سيد الكلمات، تنظيرات عبثية، لا أساس لها ولا راس، ومفاهيم مضخمة لا مدخل لها يجعلها منتمية إلى الخطاب السياسي، وهذه الندوة صورة عن الندوات التي تقام رغبة في ملء الملف العلمي، زيادة في الترقية، ومن ثمة زيادة في الأجر.

الإشكال أن هذه الكلمات سيتم طبعها، وجمعها في كتاب جماعي، سامحني الله، فقد جاء في حديث نبوي، قوله: لا تجتمع أمتي على ضلالة، فنعدل عن هذا القول، إلى قول آخر، إن الضلالة بريئة في الأساس من مثل هذه الندوات، التي تشق طريق البحث العلمي نحو الخسران المبين، يكذبون علينا، ثم يقولون: إن طلبة اليوم ليسوا طلبة، اتبعوا أهواء الحضارة وأهوالها، فصاروا بعيدين عن القراءة، ولا أحكم على الكل، فالشؤم واللوم على من يضع نفسه في مرقاة أستاذية كاذبة.

مر سعيد بجانبي، وكنت جالسا، فانحذر عندي، وهمس في أذني، فقال: أي عبث نحن فيه يا نديم؟ فضحونا وشققوا لنا رؤوسنا بأن الندوة وطنية، وسيحضرها أساتذة أجلاء، وما رأيناه أمر جلل، فذهب وهو يحرك رأسه، قلت في خاطري: لم تر شيئا يا سعيد: فالجامعة مطبخ لأكلات غريبة، يتم تزيينها واعتبارها مصنوعة صنعة خارجية، والندوات لا تهدف إلى إغناء البحث العلمي، بل يتغيا فيها أصحابها في غالب الأحايين، ملء الملف العلمي، من أجل الترقية لا غير، حتى لو كانت ورقته بعيدة كل البعد عن موضوع الندوة، ثم يفخر الأستاذ بأن مقالي سيخرج في كتاب جماعي، عن ندوة ألقينا فيها كلمتنا، والشاهد أنهم حينما يحصلون على مبتغاهم، لن تجدهم يعتكفون ولو دقيقة على كتابة ورقة علمية أو ما شابه، نحن الطلبة لا ندرك هذا، يصلنا فقط صدى ما يقال، ونرى صورة مزيفة يتم تحضيرها بعناية في مطبخ ما يسمونه بالمختبرات الجامعية.

اقتربت الندوة من الانتهاء، حتى يتم فتح باب التساؤلات، تتبعت الندوة بدقة، ولم أسجل ملحوظات من شدة السأم، وسئمت من كثرة الثرثرة التي سمعتها عن تساؤلات المتدخلين في موضوع الآفاق والرؤى، وفي الإجابة بدأ المحاضرون يستعرضون عضلاتهم اللغوية، ومهاراتهم في التواصل، فنسوا الموضوع نسيا منسيا، وما أنساهم الشيطان ذلك، بل في تركيزهم بسعي كل واحد إلى التفوق والتعالي، ملَّ الحاضرون وبدأوا ينصرفون، لم تفدهم الورقات بشيء، وإن كنت أصوليا فلا أقصد بالورقات الكتاب المشهور في أصول الفقه، إنما أقصد الورقات التي يدّعون أنها علمية.

تركت المذكرة خاوية، والقلم بين أسناني، ويدي تنتف شعري، دون تسجيل ملحوظات، اليأس ثم اليأس ولا شيء غير اليأس، هذا ليس دليلا على العمق، بل دليلا على طبيعة جو الندوة، الذي يملؤه الملل ويعلوه الكلل، وأما طلبة الماستر فيضحكون كأن شيئا لم يقع، يستمتعون بالتقاط الصور، والمحادثة فيما بينهم، والبعض الآخر من الطلبة جلس من أجل احصاء الجمال الذي يملأ القاعة، ومبادلة الإطراءات فيما بينهم. الطعم العلمي الذي كنا نرجوه في الجامعة، أصبح مرا ومرذولا، فيه أشباه الأساتذة المشهورين عند العامة، بأنهم يجيدون الحديث ويتقنون فن الكلام، ويضبطون تخصصهم، وما رأيته يعكس هذا الشأن،، لا نحمل عنهم كلاما مسبقا، بل إن في جباههم عبارات تبدي لهم حقيقتهم المقعرة.

الأغبياء من ظنوا أنفسهم عظماء بمحض صدفة الشهرة التي يمتازون بها، حتى ولو قالوا كلاما عاديا، تتطاير حوله العامة، وتجده منتشرا مذاعا بين الناس، فأن تظن بمحض الشهرة أنك السيد في مكانك، تقول كلاما فيهتز له خاطر الناس، فهو أمر يحقّ عليه البكاء، لأنه يسهم في ترسيخ الغباء ورسم طريق القداسة العمياء، ورحم الله القدماء، لما قالوا: لو أخذنا بفكرة ما ترك الأولون للأخيرين شيئا لما وصلنا إلى هذا التقدم، ولا دراية للأساتذة الذين ألقوا كلماتهم، أن الحاضرين سئموا منهم، وذهبوا وتركوهم، بقي القليل فقط، انطلقت الأسئلة والتدخلات، والشيء نفسه بعضها في الموضوع، والبعض الآخر كأن صاحبها في عالم آخر غير المدرج، وطبعا انتهت المداخلات، والإجابات عنها نحت منحى آخر، لم تعر الاهتمام أبدا للمتدخلين، انقضت الندوة مع الساعة السادسة، وذهب كل إلى مرتعه ومسكنه، وأغلبية طلبتنا بالماستر ذهبوا ليأخذوا صور ذكرى مع الأساتذة، ليشاركوها مع زملائهم على مواقع التواصل الاجتماعي، انتهت

مهمة إظهارهم في بيع صورتهم المزيفة، وتسويق أنفسهم ليقال عنهم أَنعم بطلبتنا وحضورهم الوازن، وأقول أنا: أبئس بها من ندوة مليئة بالنفاق والتزوير ولغط الكلام، وفساد المعارف وتقديس الأشخاص، انتهت مهمة التصوير، ففر الجميع، كأن الكلية بلعتهم، لم نجد لهم حسيسا ولا أثرا، بقينا نحن جنود الخفاء لنقتطع وقتا آخر، نجمع فيه المدرج ونعيد المستلزمات التي أحضرناها إلى الإدارة.

جلست على الكرسي مرتخيا، شعرت ببعض العياء، أحسست بالحسرة إثر ما رأيته في الندوة، بقيت أنظر وأتأمل غرقَ مسعود وعشيرته في التقاط السلفيات، كل صورة بتغيير ملامح الوجه، الطالبات ووجوههن مملوءة بمساحيق التجميل، يلتقطن صورا دون حد، لدرجة أن العاكسة تحس بالدوار، والطلبة يتبجحون فيما بينهم.

حملت ندى مذكرتها منزوية في ركنة مع أستاذ أجاد في إلقاء كلمته إجادة، ليس أستاذا في الكلية، لقد جاء من كلية الجاحظ للآداب بمدينة السناء، واستحسنت كلامه أنا أيضا، فندى غارقة تتحدث معه، وتتناقش معه في مسائل مرتبطة بآفاق تحليل الخطاب السياسي، لم تغريها متعة التصوير، بل أغرتها متعة أخذ العلم من أفواه العلماء، وأما إلهام فما زالت تقدم شهادات الحضور للذين حضروا للندوة من أجلها فقط، لا رغبةً في الاستفادة، يريدون شهادات الحضور ليزيدوا بها عدد الساعات المطلوبة لمناقشة أطروحة الدكتوراه، وقد يَسرنا مهمة أخذها؛ لأننا قد أعددناها وبتوقيع من منسق الشعبة، فتكلفت إلهام منذ بداية دخول الحاضرين بتسجيل أسمائهم ثم تقديمها. من كانوا يرغبون في أخذها فقد صبروا حتى انتهت الندوة، وأما المساكين الذين أتوا حبا في الاستفادة

فسرعان ما انصرفوا بسبب أعمال الندوة الرديئة، والرداءة سكنت في كل شيء، أصبحنا نستنشقها في كل مكان، الرداءة صنيع إنساني يشق طريق الذيوع والانتشار، وانتشارها في الجامعة يوقفنا على مَعْلم من معالم التفاهة التي ستكون منبع الطلبة ومطلبهم ورواءهم، وإننا سنعلن صلاة لا ركوع لها عن البحث العلمي، وعن شيء يسمى الجودة في الجامعة.

بينما أنا مستمر في الجلوس وقف سعيد أمامي، قائلا: إن ما تلفظ به بعض الأساتذة ههنا، أشد فظاظة مما فعله أبي، فالبحث العلمي دخل محكا من المتاجرة والربح، لحن في الكلام، ومغالطات معرفية، وادعاء في المعارف، ولو تجرأ طالب منا على قول ذلك، أو على فعلِ فعلٍ من هاته الأفاعيل لأعدوه طالبا يعد عالة على المعرفة وما شابه هذا، ولاعتبروا قوله قولا فاسدا لا معضد له وأساس له.

قلت له: أكيد تنادم معك الحال، وخسرت ساعات كثيرة، تحمسا منك لهذا اليوم، وفي الأخير تبخر حلم حماسك، اعلم أيها الصديق أن لا شيء قابل لنتحسر عليه في هذا المسكن الوجودي، يبقى كل ما يحدث أمرا عاديا، لا مجال للندم عليه، ولا مدخل لليأس عليه، الجامعة ومطبخها أمر معلوم لديك الآن، وما إن عاينت مشكلة غير محمودة أو غير منطقية فلا تحمل نفسك على التكلف لرفضها ومعارضتها، فالداء فيها قديم، ويصعب إزالته، فقد تلاشت جذوره في مختلف أسوار الجامعات.

قال سعيد: تعبنا يا نديم، ليذهب هؤلاء، لنجمع المدرج، ونذهب إلى سجننا الذي يحمل عنا كل أثقالنا، ألا ترى يا نديم: هؤلاء الطلبة لا يساعدون أحدا، ولا يتركون من يفعل شيئا، على الأقل ليخرجوا لننه ما تبقى، فقد تعبنا كثيرا، لقد سمحنا لهم.

خرج جميع الطلبة الذكور، بعد إنهاء الجلسة الاستعراضية والتصويرية، وبقيت الطالبات معنا، ومن بينهن خديجة التي غضبت لما كُنا نجهز المدرج، غضبت على نفاق الطلبة وسخريتهم، ووجوههم مليئة بالمقت والصداع، وهي طالبة شديدة ولينة، وتمزح وتضحك، وقيل عنها أمازيغية، موطنها من جبال ريف الحسيمة، هناك البساطة في العيش، واللطافة في الأخلاق، والظرافة في الكلام، والبراءة في الوجوه، جاءت من أعالي الجبال، إلى عالم مدينة النصر، أملا في استكمال مسارها الدراسي والعلمي، وخديجة أقرب إلى التدين بشدة، وصلني أنها حافظة لكتاب الله، وفيها كل هذه الخصال ولا تظهرها، إذا رأيتها حسبتها طالبة عادية، عكس آمنة التي تظهر للآخر أنها على ملة الإسلام، ومتدينة، وكأنها ترى فينا نحن الطلبة أننا من آل قريش المشركين، تتهرب منا ولا تضحك ولا تمرح، عابسة، ومقيدة، تمرح مع الطالبات فقط، والطالبات يمرحن معنا ويضحكن إلا هي، آمنة لا أقول عنها إلا الخير، وأحسب أنها حرة في حياتها، ولكن الطلبة لا أحد يسلم من ألسنتهم. ومع اقتراب الساعة السابعة، انهينا شغلنا في المدرج، وانتهينا من كل شيء، ولكن بعد خروجنا تفاجأنا بصدمة كادت لا تكون مصدقة، فحراس الكلية وجدوا مسعود أبو البنات وآمنة في وضع لا يوصف، الصدمة لم تكن عادية، إنها مفجعة حقا، تلك المثالية التي كنا نحسبها لصيقة بآمنة زالت وفرت، الطالبات وضعن أيديهن على فمهن مستغربات حائرات، أنا وسعيد بقينا مدهوشين مما حصل، أخبرنا الحارس أن ما حصل لم يحصل مع الأفواج السابقة، ولكنه أمر عادٍ أن يقع في ابن الياسمين، فكثير من طلبة الإجازة وجدوا في وضع متلبس، شبيه بوضع آمنة ومسعود.

لا غرابة أن يفعل مسعود ما فعل، والعجاب أن تفعل آمنة ما فعلت، التي ظلت تبكي دون أن تنبس بكلمة، استفسرنا حول ما وقع، فصرخت آمنة، ودون خجل وحشمة، قالت: لقد شاهدني لما خرجت من المدرج ذاهبة إلى المرحاض، فتفاجأت بدخوله عليَّ، ولم أقدر على الصراخ والمقاومة فحدث ما حدث، تتحدثُ ومسعود ينظر إليها نظرة احتقار، لا قدرة له على الكلام، ونظرته توحي بأن في حديث آمنة شيء من حق، أو فيه إنَّ، أخبرنا الحارس بكتم ما حصل، فقال: كنت أبتغي الاتصال بالشرطة، ولكن سينتشر الخبر بالكلية، وستعتبر فضيحة تنضاف إلى فضائح هذه الجامعة ومأساتها، شربنا الصدمة وكتمنا الخبر، تخلخلت صورتا مسعود وآمنة.

لم تتقبل ندى ما صدر من صديقتها، التي رأت فيها الإنسانة المؤمنة الظريفة، البعيدة عن ارتكاب أي مكروه يسيء بشخصيتها، وسعيد همس في أذني بكلام يوحي بالاحتقار، ولو كنا نرغب في فعل شيء كهذا، فلنبتعد عن الحرم الجامعي، أي مصاب أصاب الجامعة، لتحدث فيها هذه الوقائع؟ نتحمل كل شيء إلا هذا الشلل البئيس، الناس يمتلكون مشاعر الجنس ويفرغونها في أماكن خصصت لها، ولكن أن تقودك نفسك إلى جعل الكلية مخدعا لهذه الأفاعيل، فالأمر حقيق بقدوم فاجعة من الغباء، آمالنا يا نديم التي كنا نعلي فيها من شأن الكلية بدأت تخفت وتتلاشى، لقد يئست مما أراه الآن، حقيقة الوجود أنه مأساة فرضت علينا، وليتنا نمتلك حظ عدم المجيء إلى هذا الخراب.

14

المتعة المزيفة

تخربت صورة آمنة، وازدادت رفعة مسعود، الذي كان يأتي إلى الفصل وكأن شيئا لم يقع، لا إحساس له بما وقع من ذنب. العدو الداخلي قد نخره، وحط من قيمته، العدو المصاحب لنا حتى في أسوأ حالتنا، هو الضمير، انعدام ضمير مسعود، جعله يعيش حياة هاوية، حياة لا قيمة لها، وأما آمنة فقد غابت عن المشهد، ولم تعد تظهر، الخبر المشكوك الذي نعرفه أنها مريضة، ولا قدرة لها على المجيء، ولكنه مجرد كذبة، فآمنة كما حكى مسعود لسعيد، أنهما كانا في علاقة افتراضية على مواقع التواصل الاجتماعي، وظلا يتحدثان بكلام لا بأس به، في بداية تعارفهما، وبعدها تطورت العلاقة، وأصبحا مهووسين منفتحين على موضوعات ما بعد الثانية عشرة ليلا، وهي الساعة التي تصبح فيها جميع الإناث على نسخة واحدة، كانت آمنة تبعث صورها مخلة، كمن ولدتها أمها، بعد أن ألقى بها مسعود في مصيدة الحب الكاذب، والكلام الحلو، والأحلام العاهرة، فتلاشا بعضهما في بعض فصارا في تواصلهما ليليين، ومسعود ابتغى فضيلة الاستمتاع بجسدها الايروتيكي، ويريد أن يهمس لها بكلام يسعى فيه إلى المتعة الحقيقية بدل الافتراضية، فالمتعة في الافتراض كالقبلة من وراء زجاج، لقد أراد كسر الزجاج واستغل فرصة الندوة، فوقع ما وقع.

مسعود استغل كبتها، وجهلها، واشتياقها للمتعة، فأسقطها في فخ الزواج، الكثيرات اللواتي يبحثن عن فارس أحلامهن في الافتراض، وهن لا يعلمن أن ما يبنى في الافتراض سرعان ما يزول، لأن العلاقة تكتسي

طبيعتها وخصائصها من عالم بارد مليء بالجفاء، والغبيات هن اللواتي يحاولن إظهار لطافتهن وحنانهن واهتمامهن لشخص غبي، داخل عالم افتراضي مبني على الهشاشة، ومغلّف بالخرس، ومليء بالضلالة والفساد، غايةً في كسب حب، هو في الأساس هدية غير مستحقة، إنهن يعشن في أوهام افتراضية داخل عالم افتراضي، تمسي فيه العلاقة متلاشية ومتناهية وزائلة وهشة، مشحونة بخصامات هزلة توحي بالغباء العاطفي، وتلاسنات بليدة تظهر العمى الذي أصاب العلاقات الإنسانية، هذا الجماع البائس، رغبة في متعة مزيفة، كلفنا وجود شجرة عملاقة من البائسين والمجانين والحقراء الأغبياء، الذين كلفونا بحقارتهم ارتكاب هذه الشنائع الفظيظة.

وحدثني الصديق أنه لما ظهرت على آمنة علامات الهرم، ورأت نفسها تطل على عتبة اليأس، حاولت البحث عن شخص يمتعها متاعا، ويسرحها سراحا، وترغب في الإحساس بالحياة، فرأت في مسعود الإنسان الأليق والأنسب، فعقدت معه وثاق الصداقة سرا بالحي الجامعي، ولله العلم بما يفعلان في ذلك المكان، والأمر المفاجئ أن آمنة كما حكت لي ندى مخطوبة، وستتزوج قريبا، ولربما هذا ما جعلها تحس براحة تامة فيما صنعت، استغلت خطبتها لاستغلال ما تبقى لعقد الزواج في المتعة والحياة، حكايات كثيرة تقال ولا ندري ماذا سنصدق؟

15

مسار

اقتربت الامتحانات الجامعية النهائية، وبدأ الطلبة يجتمعون للمراجعة، يملأون المكتبات والحدائق، للاستعداد الجيد، تبدأ الطالبات بالهجوم على الطلبة المتميزين والمتمكنين، طلبة ألفوا الجد والاجتهاد لا ينتظرون الدقائق الأخيرة للمراجعة، وهؤلاء الطالبات اللائي يعتبرن أنفسهن جميلات وأنيقات، لا يجئن إلى المحاضرات، ولكن يسخّرن ما يمتلكن من مقومات في استدراج المتمكنين، بتوظيف جميع السبل التي تؤدي إلى استيفاء المجزوءات، وحينما تنتهي الامتحانات فسلام عليهن وعلى ما يملكن، والمعضلة أنهن يستدرجن الطلبة والأساتذة، ومن ثمة فينجحن في إدخال المواد، أما الذين يكافحون ويقاتلون فلا حديث عن مشاكلهم ومصاعبهم.

ولا تظهر طالبات المصلحة فقط، بل يظهر المستغلون لحاجة الطالبات المعرفية أيضا، هم أولئك المدعون للمعرفة، وهم في الحقيقة فارغو العقول والأدمغة، وإنما مبتغاهم ما تحصّل في عقلك من المطالب، أولئك الذين يوظفون مواهبهم في استغلال الناس هم في حقيقة الأمر خبثاء وحقراء، سيأخذون الجزاء الأحق بهم، ونسأل الله الهداية، وممن عرفت في الجامعة يفعل هذا، مدعي الفلسفة أدهم شبيه ابن بلدتنا أحمد، فهو أصلا كما قلت، أدهم لا يعرف معنى الله، ولا يعبده، يرى أن الحياة ميسرة غير مخيرة، ولكن هذا لا يمنعني من الحديث معه، فهو إنسان ولا مشكلة لي معه، وقد كان يخبرني بمعاناته مع صاحب البيت بعد

التأخير في أداء واجب الكراء، لا يرحمه، ويظل يشاغبه بالكلام، هؤلاء الناس سيئون غير رحمين، همهم الوحيد هو جمع المال، يسبحون في الظلمات من أجل الحصول عليه، يقتلون عليه النفس لتحصيله، النصر بجميع الضمائر بلد لا يصلح لأي شيء، مدينة تحتاج لمرقاة أخلاقية صاعدة، خباثة الأخلاق في أهل المدينة تفيض بلا حدود.

كانت لياليا متشابهة، طوال سنوات الماستر، تمر من نفس الأحداث، والكلية تبشر بمآل إنساني كئيب، الحياة في الكلية لم تعد تطاق، المشاهد مؤلمة جدا، همنا الأساس، أنا وسعيد، هو الاعتكاف من أجل الدراسة، وإنجاز العروض، لا نكل ولا نمل، نأخذ بقول العرب: اثنان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال، الآن لا نطلب شيئا إلا العلم، أما المال فهو الذي يطلبنا، وقتنا ليله كنهاره، لا جديد سوى القراءة، في الكلية صباحا وفي البيت القذر ليلا، كنت ألتقي بندى كثيرا، في ساحة الكلية، مهموما وكئيبا، أقرأ في ملامحها كل يوم مشهدا من مشاهد الحياة المنتظرة، عشنا أصدقاء طوال الفترة الدراسية دون أن نحب بعضنا بعضا، لا أحد يتجرأ على الحديث بشيء يتعلق بالمشاعر المتبادلة، كنت أقول إنها جاءت لتنقذني من الضلالة، وجئت إليها لتعانق أملا، وننشد معا أغنية الخلاص، كانت تقول لي عيونها: لقد وجدت فيك الحلم الذي يراودني في كتبي، وفي أحلامي، وكانت صورتي تنطق بأنني لا أحب الوداع، لا أحب الفراق، أحتاج إلى سند يعينني ويؤنسني، ويخفف عني محنة أعباء الحياة.

16

لا أحب الوداع

الصديق سعيد، بعد حادثة أبيه لم يعد يثق في أحد، الحياة عنده موبوءة، اصطدم بواقع مؤلم جدا، ونحن على عتبة ختام الماستر، أحس بأن إلهام بدأ يخفت اهتمامها به قليلا، وخاصة بعد انتهاء الفصل الثالث، كان يحس بهذا الأمر ويخبرني به، وكنت أرى ذلك بعيني، قضت مصالحها، وانتهت أشغالها في سعيد، والإشكال أن الصديق، ذهب معها بعدا من أبعاد الصداقة الآهلة لمبادلة مشاعر الحب، إلا أنه وجد في ذلك تمثيلا، يحق لنا أن نقول وبصدق تام، إن جميع الإناث يراودنك إذا وجدن فيك ملذة ومبتغى، إنهن يستطعن الاستمرار معك في التمثيل الكاذب، ولو اقتضى ذلك أن تكن معهن في خلوة، لا يهمها أي شيء، تلك المشاعر التي كانت تظهر على إلهام، بدأت تذبل، وبالكاد ذبلت، لأن مقصدها انتهى، وغايتها ذهبت، أخذت من سعيد كل ما تريد، وما بدا منها من اهتمام يجعل مشاعرها صادقة، ولكن في الحياة الدنيا لا شيء تعول عليه، فجميع الأشياء قابلة لتتغير عنك، الحياة لا تستحق منا إلا التظاهر بالغباء في النظر إلى الأشياء، من كان يتوقع من إلهام هذا الفعل، فقد كفر بالله، وساءت سريرته، وفي الحقيقة فقد اقتنعنا أن عالم الإناث عالم مغبون لا مُستحَق للخوض فيه، والتعلق به لفهم خباياه، فهو عالم سروجي متلون، ترى في كل تلون حقيقة مثالية، قابلة للتصديق، عالمهن مليء بالحيل من أجل الوصول إلى مصالحهن، وأظن أن مقامات الحريري التي يجسد بطلها أبو زيد السروجي، تصف شيئا من كينونة الأنثى.

حدثني الصديق، بأن إلهام، لم تعد تهتم، ودائما ما تضجره بنقاشات فارغة لا قيمة لها، تضطر لخلق وشوشة في العلاقة، من أجل إنهائها، ونعلم أن الضجر بين الأصدقاء يؤدي إلى الانفصال، وأعلم أن الصديق لا يحب الضجر، وسيضطر إلى إبدالها بصديقة أخرى، إلا أنه صادق النية ونقي السريرة، يسعى كل مرة إلى الصلح، والأجدر أن يفعل ما قاله ميلان كونديرا،:"لا يوجد ما هو أسوأ من الضجر، لذلك أبدل الصديقات"، والقولة من رواية حفلة التفاهة، والأصل أن جميع العلاقات تافهة، وممسرحة ميثاقها وعقدها الزوال، إننا تافهون حينما نسعى للبحث عن شيء يسكن في دواخلنا، ولكن دائما ما يكون هناك عائق يحول دون ترك هذه التفاهة، هي وجود أشياء متجاذبة بين شخصين، يكون خيطها الناظم هو الحب، إنه السبيل الوحيد، القادر على منحنا قوة لتجاوز مكاره حفلة التفاهة التي نسبح فيها، حفلة أكلنا فيها المساوئ ونشرب منها المساوئ، وننطق بها بالمساوئ. وقف سعيد على عتبة الافتراق معها بكثرة العتابات، وما صدق شاعرنا العربي في قوله:

تصالح عاشقان على عتاب... فما افترقا إلى يوم الحساب

فلا عيش كوصل بعد هجر... ولا شيء ألذ من العتاب

فلا هذا يمل حديث هذا... ولا هذا يمل من الجواب

لما اقترب موعد إنجاز بحوث الماستر، كانت إلهام لا تفارق الصديق، كانا معا لا يفارقان بعضهما البعض، أنسته ما عاشه في فترة طلاق أمه، التي استطاعت أن تتجاوز مرحلة طلاقها العصيبة، وكافحت لتقف بجنب أبنائها، وتمنحهم بعضا من حاجات الحياة الضرورية، الصديق أعدّ العدة على تحقيق أمانيه ومطالبه، رغم ما لقيه وما يراه من بؤس في هذه الحياة،

كان يقول لي: إنني يا نديم على مقربة من اسعاد أسرتي، رغم ما يصيبنا من مفاسد في مغربنا الحبيب، ولي طموح كبير بأن أوقد في الناس شعلة الضمير الميت والإنسانية الميتة، وأن أحرك قلب العالم المتوقف عن النبض.

تلك هي أماني سعيد، وأحلامه، لا يدري أنه ما دمنا مركونين في الحياة، ونحن بجانب كومة من المجانين والحمقى والأغبياء، وعبدة الإله الجديد، ومنعدمي الضمير، فلا سبيل إلى طلب تغيير العالم وقلبه، ما علينا إلا السكوت، والابتعاد عن ضجيج البشرية، واتخاذ الوحدة المهد الأساس لابتغاء الاستمرارية دون ألم، وبهذا القول أقرّت ندى: التي غيرت نظرة تعاملها مع جميع الناس، بعدما شهدت حدث آمنة التي وصلني أنها في بيتي زوجها، وهو لا علم له بما حدث.

إلهام فمرة تقف معنا، ومرة تظل لوحدها، لأن غرضها محقق ولا غاية لها بعد اقتراب انتهاء الأسدس الثالث، أما ندى فتتوضأ بالنقاش معي كما تقول: وهي الآن في وحدتها مع بحث تنجزه عن ميلان كونديرا، تبتغي فيه دراسة فعل القراءة والتأويل في الأعمال الروائية للكاتب، ولا تظهر في الكلية، إلا إذا أرادت أن تحدثني في أمر ما يخص بحثها، وفي يوم شتائي مسائي، نسمع فيه قطرات المطر في خزانة الكلية، وسعيد جالس يطلع على بعض الكتب، ألقت عليَّ ندى كلاما، شبيه بمن خدش قلبي، وألقى فيه شعلة من نار، أخبرتني أنها لا تحب الوداع، وأنها وقعت في حبي، وقالت: تقبل قولي يا نديم أحبك ولكن لا أقدر على الزواج بك، لا أتحملك زوجا، بل أريدك بطلا أحلم به وأكتب عنه، أحبك بألف كلمة، وأتمنع عن الزواج بك بكل لغات العالم، لا أريدك ولا أتحمل ظلك زوجا، دعني أحبك

كما أريد، وامطر عليّ الغيث من حزنك، ما يشفي أحزاني، إني أتوضأ بحزننا لأصلي صلاة الوداع الذي لا أحبه، ولأضع صورتك أمام كل رواية سأكتبها، وأمام كل حزن سأعيشه، أعلم أنني تأخرت لإخبارك بهذا، وأستيقن أنك صادقتني في صداقتنا، ونحن على أبواب مناقشة البحوث يا نديم، أخبرتك بما في صدري من غلّ الحب، وشدة ألمه، فنحن المهووسين بالقراءة، مشاعرنا معطلة، لا تشتغل إلا عند الوداع، ونحن القراء، يصعب أن نجد شخصا يستحق الحب، إن الصديق بمثابة كتاب يستحق القراءة بعد الانتهاء من قراءته والاستمتاع به، ومن ثمة فأنت صديق تستحق الحب، بعد سنتين من الأحداث الشيقة الماتعة.

تأملت كلامها جيدا، والأمر الحقيق بالقول، أنني لم أقل شيئا، فقد أبلستني بكلامها، ولم تترك لي فسحة للحديث، قلت لها: إن الله هو من يلقي بالحب في قلوبنا، ولا مدعاة لإنكاره، أقول هذا الكلام، وفي قلبي ضرب من معاني "إنما" كما يقول الجرجاني، كتمت كل ما في قلبي، وهدأت خاطرها بأن إحساسها تجاهي، شرف لا متناه، نخاف أن نحرقه، حتى لا يخلّف في قلبنا نارا لا متناهية، اعتبرتها جودو المنتظر، ولكن والحق يقال، فلا نستحق نحن أبناء الجنوب الشرقي حبا، وما شابه، نحن في قرى منسية وفي مكان منسي معتوه، يملؤه الحقد والبغض، عاطلون عن العمل، قريبون من التشرد، بعيدون من السعادة، ومتشبثون بالتشاؤم، يائسون من الحياة، بعيدون عن الحياة والحب. ولكن متشبثون بالحياة، مرافقون للأمل، وصادقون في كل شيء، صادقون في الحب، ولكن لن نفعل به شيئا حتى وإن اعترفنا به. إنها تحبني حقا، وأحبها، لم أخاصمها يوما، ولم تخاصمني، رغم اعترافها بحبي فقد بقينا أصدقاء دون أن نعاتب بعضنا.

ومنذ شتاءة ذلك اليوم، في الخزانة، لم نر بعضنا، كنت أقول: كيف يحدث ذلك وقد ألقت بما في قلبها لشخص تافه؟ لا يعرف في الحب سوى الصمت، فلتكن في أمان، إنني أحبها، بكل أحاسيسي، لكن الحب وحده في هذا الزمان لا يكفي، حتى لو كانت التي تحبك حبا لا مقاس له، فأحيانا يكون الواقع المحدد الرئيس لطبيعة استمرار الأشياء من عدمها، ويكون أيضا أساسا محددا لتحقق أحلامنا وخيالاتنا، الحلم بالحياة السعيدة في واقع لا يعرف إلا تباشير الإله الجديد فهو أمر مستحيل، فإلهام كانت مثالية، تظاهرت بأخلاق محمودة طيلة الموسمين، غاية تحقيق مسعاها، حتى الأخلاق التي نتلبس بها، أمست أداة سحرية اغوائية عند الحقراء، جميع الناس يجرون أذيالهم ويرفعون رؤوسهم، للوصول إلى مبتغاياتهم المنشودة. إنني تعبت من فقدان الناس الذين أحبهم، ولا قدرة لي على فقدان ندى، إنني لا أحب الوداع، ولكن للواقع كلمة الحسم في هذا.

17

حيوان أنفوميديا: "إعلامي سياسي"

وصلت معك عزيزي القارئ محطة اللقاء الأخير، فقد اشتقت لمحاورتك والحديث معك، ومبادلتك بعض الأحاديث، سأحدثك في هذا اللقاء عن حيوان أنفوميديا، أو ما يسمى الإعلامي السياسي، وقرأته في كتاب لا أتذكر اسمه واسم كاتبه، إلا أنني أتذكر بالأساس مضمونات الكتاب وموضوعاته، وإن كنت قارئا عميقا فستؤوب إليه لترى ذلك، المهم أننا في لقاء أخير، وفي موضوع آخر وأخير، دعنا نتحدث عن طبيعة الإعلام في مغربنا الحبيب، مغرب المأساة والضلالة، فحيوانات أنفوميديا كثيرون عندنا، إعلاميون ضالون فاشلون، لا انتماء لهم سوى الدفاع عن السياسية الفاسدة، ونشر التفاهة والغباء في الناس، ما تكرسه الجامعة من جهل، يتمه الإعلام بجهل آخر، الصحفيون النزهاء في وطننا سرعان ما تبتلعهم الإغراءات المادية، والأموال الطائلة التي تعرض عليهم، لتغيير بدلتهم ومواقفهم تجاه سياسة البلاد، وانتقالهم من معارضين إلى مؤيدين.

بدا لك أن معتقدات الإله الجديد ترسخت في جميع الأمكنة، حتى في السياسة الملعونة، السياسيون الإعلاميون ملعونون، المدافعون عن تظلمات الدولة ومفاسدها، ويجعلون ما تفعله الأحزاب شيئا محببا لدى الشعب، الصورة الإعلامية صورة توحي بحيونة الإنسان، وتكريس سياسة الجهل والعبودية والجمود والكسل، وما شابه هذه المسائل.

إن أشد معضلة يمكن أن تحل بالإنسان، هو حينما لا يجد من يبلغ صوته ورسالته، ومن يدافع عن مطالبه، حينما يجد إعلامه إعلاما

سياسيا ومن ثمة حيوانيا، لا ينقل إلا الفضائح والمطبات، قد تعرف عزيزي القارئ، شخصيات إعلامية لم تتضامن ولم تترابط مع السياسة فكان مصيرها الخفوت والفشل، والسجون، وتعرف شخصيات عارضت النظام السياسي، ونقلت الفضائح البرلمانية فكان مآلها العقاب في سجن يتجرعون فيه مآسي كثيرة، ويتذوقون فيه أشد العقابات، ويجلسون على قرعة نكحت الملايين من الأبرياء الذين دافعوا عن مطالب الناس، فولدوا الألم والبكاء، أي حسرة عزيزي القارئ تشدنا وتشدك إذا رأيت الإعلام المشهور عندنا، ينقل فضائح الكبت والجنس والقتل والانتحار والخبث، هم أسرع من سرعة الضوء في نقل جميع الفضائح، وهم أثقل من السلحفاة في نقل مطالب الشعب ومعاناتهم، نأسف الأسف الشديد عزيزي القارئ، الصمت ألذ شيء لنتقبل ما نسبح فيه، ولنكن مع الله وإلى الله مصيرنا، الله الذي رتب هذا العالم ترتيبا مثيرا، وهذه عبارة من الرمل للويس خورخي بورخيس، فالله قادر على أن يزرع في قلوبنا ما نستطيع به العيش مع متبعي الإله الجديد، والقادر على منحنا قوة غير محصورة من الصبر، لنتأمل نوافذ الله، ولنتدبر خلقه، ولنترك الإنسان فهو فاجعة صغرى، نتذوق مفاجعها كل يوم، حتى في الحريم الجامعي، وقصدي الحرم الجامعي، وأذكرك بقول يعجب ندى أن تردده دائما، وأحسبك تعرفها جيدا، وأكثر مني، إنها تردد عبارة لميلان كونديرا من رواية البطء، وهو قوله: "من يتأمل نوافذ الإله لا يسأم، بل يكون دوما سعيدا".

تأملُ نوافذ الله يبقينا على استمرارية لتقبل هزيمة الحياة عزيزي القارئ، وتقبل حيوانية أنفوميديا، وتجرع جميع مآسينا، ومن لطيف ما قرأت لابن عربي في رسائله، وأحب أن أشاركه معك في وصله بفكرة تأمل نوافذ الإله، قوله: "ما خلقت لك الإدراكات إلا لتدركني"، معنى هذا أن الله

تعالى منح الإنسان حواسه لإدراكه والتأمل في بدائعه دون مجاوزتها إلى شيء آخر، ويتطابق هذا القول مع نص للإمام السهيلي وَجَدْتُهُ في صنيع البغدادي "خزانة الأدب"؛ إذ يقول: إن الصيغة الصرفية والتركيبية للحواس الإدراكية لدى الإنسان تتعدى إلى مفعول واحد فقط"، وفَسْرُ هذا أن حواسنا منحت لنا لعلة غائية واحدة، هي إدراك عظمة الله عزوجل لا غير، ويتطابق هذا المعنى مع صيغة المدركات والحواس الصرفية، لكونها تتعدى إلى مفعول واحد فحسب، ومن ثمة فتتناسب مع فكرة أن الله منحنا إياها لندركه وحده ونتأمله، دون تأمل شيء آخر، ونحو هذا قولنا: "سمعت الخبر، وأبصرت الأثر، ومسست الحجر، وشممت الطيب، فهي أفعال ذات خصيصة ربانية نورانية، أساسها إضاءة طريق الاستقامة وازاحة ظلمة الحياة، فلنزح ظلمة الحياة وعبثها وفسادها، بعدم حمل الحياة على محمل الجد، وعدم التفكير في تغييرها إلى الأحسن، وبتأمل عالم اللاهوت، وإن كنت لا أحب الوداع أيها القارئ، فالوداع سنة الحياة.

18

فاجعة الولادة

الإلقاء بالأطفال في هذا العالم اليائس والمرعب، عمل فظيع ومؤلم، بسبب أنانية تواقة، غايتها تحقيق السعادة، وإن إنجاب الأطفال أفظع جريمة يقترفها الإنسان، وصدق سوفوكليس لما قال: "الحظ الأعظم يعود لمن لم يولد بعد". الحياة غبية ومرعبة، لا ينبغي حملها على محمل الجد، لا تعلمك شيئا، ولا تفيدك بشيء، وأكذب ما يكتب قولهم: علمتني الحياة، وأبخس ما يكتب قولهم، كن سعيدا، وكيف تحقق السعادة؟ صورة الحياة بخيسة وزائفة، تلميعها للناس شيء نأسف عليه كثيرا، وتحبيبها إلينا أمر مجحف حقا، هذه هي العبارات التي يرددها سعيد، ويعيدها كلما جلست معه في البيت، تلك الضحكة والبسمة التي ينعم بها وتملأ محياه، تلاشت وإن وما زاده بؤسا، أنه صار يمقت شيئا اسمه الفنون الجميلة، إنه أصبح متشبثا بفكرة شوبنهاور، إن المرأة تسهم في امتداد الشر وتوالده، لم تعد له الرغبة في الخروج، يكرس اهتمامه على دراسته فقط، دائما يسألني إنني أود الثأر على الوضع، أريد البحث عن حقوقي، أصبحنا نتشارك في التشاؤم والمأساة، صرنا الوحيدين البائسين، نتألم ولا أحد يسأل عنا، أما نحن فما إن رأينا أبسط حالة سنتضامن معها، ونكون إنسانيين مفرطين في إنسانيتا.

آخر عقدة ألّمت بالصديق، أنه علم بإقبال أمه على الانتحار لما جاء أبوه إلى بيت أمها، فهددها بالقتل، ما لم تأخذ إرثها، شده الطمع إلى مالها، ولم يشده الحنين إليها. يظنون أن الأبوة هي جماع بائس وبشارة بمولود،

أيها الناس فما لم يكن الإنسان قادرا على تحمل ثقل الأبوة وشدتها، فلا ينجب أبناء، يلقي بهم في عالم المأساة، ويلقي بنفسه في عالم الندم والصرخات والضجر والمحاكم. الأبوة ليس مسعاها الإنجاب، والمتعة واللذة، بل المسعى المنشود منها، هو قدرتك على تحمل عبء ما ستنجبه، إنك أمام فاجعة خرجت منك وتكبر أمامك وأنت لا تعرف كيف تحدد مصيرها، واستيقنت أن مصيرها موكول إلى الله.

بعد حادث الانتحار ذهب سعيد لزيارة أمه رغم ثقل البحث الذي ألمّ به، ولكن لا مانع يقف أمامه لإكمال مساره الدراسي، وجد أمه في حال بئيسة مؤلمة، كأنها مقبلة على الوداع، لم تتقبل صدمة زوجها، كل هذا رغبة في الإرث، رغبة في اتباع تباشير الإله الجديد، المال أفسد علينا الحياة وقزمها، لم يكد سعيد يتقبل حال أمه ووضعها، والمشكل أنه عاجز عن فعل أي شيء، تألم سعيد قائلا لما عاد من الزيارة: ينبغي بالأساس يا نديم قلب سنة الحياة، فالولادة مناسبة تقتضي تعزية وعزاء، مصحوبة بأنشودة الصراخ لمدة يوم كامل، والموت بمثابة فرح للانتقال من حياة الفاجعة إلى حياة المجد والخلود، مناسبتها الفرح والسعادة، نظرا لتخلص صاحبها من أعباء الحياة ومفاجعها.

أراد سعيد أن يحرك قلب العالم الجامد، وقلوب الناس الأصمة والباردة، وابتغى أن يوقظ مشاعرهم الميتة، كان يحمل عن العالم صورة الأمن والسلام والمحبة والعدالة، وبعدها اشتدت المعاناة عليه، ولم يعد قادرا على مواجهة مزق الحياة، كان إنسانا فضيلا، ومفرطا في إنسانيته، يقابل وجوه الناس المليئة بالحقد والبغض والنفاق، ومفظعات مساوئ الأخلاق، بوجه بشوش وضاحك، لا يتردد في مساعداتهم، سعيد اسم على

مسى، يبحث عن سعادته وسط جحيم الإنسان، لعله أفرط في إيمانه كثيرا، وتعلق بتعاملات دينه الحنيف، ولم يكن يعلم أن العالم الآن لا يؤمن بذوي الفضائل النبيلة وأخلاقهم، والإنسان اليوم لا تهمه إلا مصالحه الخاصة، لقد أنشد العالم أغنية الوداع بلحن شيطاني على إنسانيته.

غابت الإنسانية وتبدد المشترك الإنساني حينما حضرت المصالح. الإنسان يا سعيد لم يعد يُقَدّر نِعم الرّب، لقد ماتت فيه نسائم الحياة، ومات في قلبه الإله الواحد، صار يعبد آلهة أخرى، يمجدها ويبجلها ويقبلها حتى في فترة ضعفه، إله النفس، وإله المال والجحيم، الخبث هو سمة هؤلاء الحقراء صديقي، فكر في نفسك، وناشد ربك أن تغير طريقة تعاملك، إن الشجرة العملاقة للعالم متجذرة من فرج امرأة أخرج أهوالا من البشرية البائسة، لست مع فكرة خلقها من الضلع الأعوج، ولكن صرت أؤمن بفكرة أن ولادة الإنسان تعد فاجعة شديدة، كل ما في الحياة أعوج، كمٌّ مرعبٌ وهائل خرج من بطن صغير، بؤساء في أرضنا وغرباء عن أنفسنا. قد تَعلّم سعيد من دينه أن المسلمين إخوة وأن الله يأمرهم بالرحمة والشفقة، لكن ما بال الإنسان أعرض عن هذه القيم، ساء حالنا وحالهم يوم نلاقيه ويلاقونه.

أقبل سعيد على الانتحار مرات ومرات، بعد ما تظلمت عليه الحياة، وضاقت عليه كل الفسح، كنت أساعده دائما، أقف أمامه، أسانده، لم نفترق يوما، بعدما رأيت فيه كل ذلك البؤس، يحس بالراحة معي ومع الكتب فحسب، أما إلهام فلا علم لها بحاله، بعدما كانت تعلم عنه الصغيرة والكبيرة، لقد تركته، حتى في تواصلهم على مواقع التواصل

الاجتماعي توحي باضطراب علاقتهم، جميع محاولاته الانتحارية فاشلة، دائما ما يضع صورة أمه أمامه، ليعزم على إعادة نبض قلبه الصارخ، تذكرت قول نيتشه في وصله بمحاولة انتحار الصديق حينما قال: "تستطيع أن تمنع الإنسان من الحياة ولكن لن تستطيع منعه من الموت"، قلت: لربما كان نيتشه مخطئا، دائما ما نبحثُ عن سبيلٍ للخلاصِ من هذا العالم الحقير، المليء بالحقراء والمستغلين، والمضللين والمصابين بالتفاهة، والمنافقين، ولكن نفشلُ دون معرفة السبب، وهذه هي حالة الصديق الذي لم يجد من يخاطب فيه إنسانه المفقود، الذي قبضت عليه إلهام فرمته في نصف الطريق. إن تعاملاته الحسنة لا مكان لها في أرض الخراب، يتساءل كيف هوت مبادئ الناس نحو دركات السافلين؟ لا يدري أن الناس يتسابقون نحو صناعة أمجادهم مع الشيطان، وأظن أنه بريء منهم، فكما قرأنا في الكتب المقدسة إن الشيطان يخاف من الله وعقابه، لكن الإنسان خلاف ذلك، تزلزلت فيه كل القيم السمحة، ولا يخاف الله ولا يهابه، عالم الناسوت بتفاصيله المملة مزقٌ وخربٌ، لا يستحق أن تتعامل معه بكل جد، لا أمل في إيقاف مأساة العالم، والحد من نسل أناسه البؤساء، وجميع محامل الحياة يا صديقي سعيد تافهة.

قال سعيد: كنت أرى الطيبة في جميع وجوه الناس، أراهم لطفاء ظرفاء، وهذا ما جعلني أتجرع كل هذه الآلام، قلت له: لا تتسرع في الحكم على طيبتهم، تذّكر التلون الذي أخبرك به دائما، فتعاليم الإله الجديد تنافي سلوكك تماما، أهاه، كما سمعت، إنه لا يعترف بالطيبين، ولا يؤمن بالعدالة، والأمر حقيق بالتأمل، لم نعد نحتاج لهذه الأشياء، يكفي أن تكون هادئا، وأن تنسحب من فضاء الحقارة والسفاهة التي نستنشق هواءها كل يوم، الحياة تافهة، ستكتشف العبثية والتفاهة التي تملأ

العالم، هكذا تكلم الإله الجديد، تمعن فكرة الشجرة العملاقة التي كانت سببا في هذه المأساة، الشيء الذي يعنف الدماغ أيها الصديق، هل نستطيع أن نعتنق دين الإله الجديد؟ لن تجيب طبعا، أعرف أنك لن تصدق هذا، ولن أحملك على تصديقه، ولكن لا تأخذ الحياة على محمل الجد.

مصمص صديقي شفتيه من شدة الحيرة والحسرة، أصر على الإيمان بالإنسانية والمحبة والسلام، ولكنه أيقن تماما أن رئيس العالم ينكر ذلك في تعاليمه، هو الإله الجديد أو إله هذا الدهر، فقد أحكم سلطته على الناس، وأصبحت مساعيه في عقولهم المعنفة مشروعة ومحمودة. خبّرتني نفسي وتخبّرني دائما يا صديقي، أن الإله الجديد للإنسانية قد علّمهم الاستمالة والاستدراج والتلبس والتلاعب، وأشياء كثيرة، يتقنونها بدقة، لدرجة أنه قد ألبسهم قناع الخبث في صدورهم، يتجرعون الحقد والكراهية كل يوم، هم لا يعلمون ما بك، ولن يحاولوا ولو مرة، تستكن إلى نفسك، وتبادر إلى تحقيق رغباتهم، يصرون على أن تشتري لهم السعادة، وأنت مت فإنك البئيس الذي لا إحساس له، إنهم يردون منك أن تكون عبدا، تحقق جميع طلباتهم، يعرضون عليك مشاكلهم بالجملة لتستجيب، ينوّمونك بمشاعرهم الكاذبة، لتفتح لهم قلبك، وتطلب أن تساعدهم.

لقي من إلهام ما لقي، التي رأته أثناء مناقشة البحوث، وأدارت وجهها عنه، قلت له: هذا هو الإله الجديد صديقي، لا يطلب منك أن تمتلك الفضيلة، يكفي أن تتلون وأن تلبس ستارة الشيطان الممزقة بالنفاق. فكن لك يا صديقي، ولا تكن لغيرك.

وفي اليوم الذي اجتمعنا فيه لمناقشة بحوث الماستر، أو شبه المناقشة أو صورتها فقط، فقد بدت المناقشة مملة، نعلم أن المناقشة في الجامعة قائمة على المجاملة، مناقشة الأكلة السريعة، دون حضور ودون فخر، ودون تقدير لمجهود طالب سهر الليالي، ولم ينم قط، مروا على البحوث مرور الكرام، حتى قراءة ما أنجزناه تمت قراءته قراءة باهتة، وفي ذلك اليوم جاءت ندى تحدثني بقولها، أرى أن حالة سعيد ليست على ما يرام، وهو ينتظر دوره في المناقشة، حالته أشد سوءا من حالتك؟

تقول ذلك وأنا أنظر فيها وفي ملامحها، وفي لحظة قولها أحبك ولا أحب الوداع، غرقت ساهيا فيها، وأعدت عقلي إلى رأسي فقلت لها: إن قلب صديقي ملتهب بأحلام الحرية والعدالة، وتعلمينه صديقا لا يفارق روايات أدب السجون، حديثي معه مطعم دائما بأقوال الثوريين والمناضلين، نظل نتناقش في الثقوب السوداء المرتسمة في عقول الناس، يجد نفسه غريبا وسط شعب تلاشت فيه الإنسانية وكل مبادئ الحياة، شهد أحداثا لا تليق بالجامعة، تلقى صدمات من أبيه، تنغصت معيشته بسبب مرض أمه، بهت بمسرحية إلهام الغرامية المتقنة، تشده الغصة في قلبه البئيس حول ما يقع، أصبح حاقدا وساخطا! يرى أن لا أمل لمستقبل زاهر، في هذه البلاد السعيدة، اتخذ قرار الثورة على الوضع، أُخبره دائما أن يشد زاوية راكنا فيها دون الخوض في هذه المتاهات، فالدولة التسلطية عندنا ملعونة، كما قال العم إدريس، لن يقدر على مواجهة فسادهم، لا يعلم أنه وسط شعب مليء بالثقوب؟ وتعلمين يقينا ماذا أقصد بالثقوب، إنك قارئة عميقة كما عرفتك.

تأسفت ندى على سعيد الدعابة والضحك والسخرية والسعادة، إلى سعيد المعاناة والألم والتشاؤم والبؤس، قالت: من يتوقع يا نديم أن صديقك سعيد سيصير على هاته الحال، أنظر إليه كيف ينكمش مع نفسه وذاته، لا يرغب في الحديث مع أحد.

قلت: إن الصديق مثقف يا ندى، تجرع البؤس من الأقارب، وأسفاه من حال واقعه، ونحن المثقفون لا نتقبل الواقع ولا نستسيغه، إلا أننا حينما نكون أمام مركب ثقافي جاهل، وأمام إعلام فاسد، فلن يصل صوتنا، ولن نطيل البقاء بين الناس، حتم علينا الصمت في بلدنا، فتوعية الشعب يحسب عليك جريمة، وستكون في عقولهم المتحجرة الإنسان الإرهابي الفاسد الخبيث في وجه الدولة، ستكون صاحب فتنة، لن يقف معك أحد، ستظل تحارب وحدك كالمجنون، نحن الذين قال عنهم مكسيم غوركي: "نحن الذين نبني الكنائس والمعامل، نحن الذين نصهر القيود، ونصوغ النقود، نحن تلك القوة الحية التي يطعم منها الجميع ويتسلّون بها منذ المهد حتى اللحد، نحن الأولون في العمل، والآخرون في اكتساب الاعتبار، من يهتم بنا؟ من فعل يوما أبسط الأشياء من أجل منفعتا وخيرنا؟ لا بل هل نظر إلينا أحد في يوم من الأيام على أننا كائنات بشرية؟ أبدا!!!، لا أحد يعتبرنا كائنات بشرية، ينظرون إلينا نظرة ناقصة، يكرسون فينا قيمهم وجهلهم حتى في مقاعد الجامعة، هذا هو سعيد يا ندى، انقلبت عقليته ونظرته.

أنهينا المناقشة السريعة، مع الساعة الخامسة مساءً، وذهبنا إلى بيتنا المعهود، وجلسنا نستريح وبدأ سعيد يصرخ بقوة، ويبكي من شدة الحسرة، اشتد غضبه فأصبح يضرب رأسه مع الحائط، أسرعت

فضممته إلى صدري، تألمت كثيرا لما يقع له، لم يتمالك نفسه فاستمر في البكاء، لقد ذاب جسده في جسدي لشدة التهابه، حزنت لصديقي ويئست لحاله، إعصار متوهج في داخله، لما سألته عن حاله، أخبرني بأنه تلقى خبر وفاة أمه، التي مرضت منذ تهديد زوجها لها، نحن المتألمون الصامتون، البائسون المقمعون، المتحسرون المتألمون، نعيش وسط مستنقع أكلتنا فيه البراغيث.

لما كان هادئا بعض الشيء، أخذ شربة ماء، وأيقظت فيه أمل العيش لنفسه ولإخوته، القدر أراد أن يخطف منه عزيزة على قلبه، التي يظل يذكر أقوالها، وأحلامها، أفحمته أن لا أحد يستحق كل حزنك وغيرتك وحقدك، دعك لنفسك الآن ودافع عن أحلامك الذاتية، وكن عونا لأسرتك، واسيته ذلك اليوم، وكنت بجانبه، فقرر بعد غد السفر لحضور جنازتها.

ولما علم سبب وفاتها، أخبرني، أنهم نقلوها إلى المستشفى وتركوها تنتظر في العراء، وبعد أن رأوا فيها امرأة لا تملك مالا، ولا قيمة لها، وبقيت تنتظر إلى أن وافتها المنية، إننا نعلم يقينا أننا محاطون بخطر يهددنا كل لحظة، نعلم أننا مقادون نحو الهلاك، نحس بأن العالم على وشك الخلاص، نتألم كثيرا لحالنا البائس العابس، نحن في وطن لا يملك أبسط الضروريات ولا يوفر لشعبه أبسط المطالب، وفي الأخير ينبغي أن نقر بهذه الأمور، وأن نقتنع أن لا مجال للأفضل، أو للإصلاح، ولكن هذا لن يمنعنا من استصحاب الأمل، والإحساس بالهدوء، والتحرر من الفزع، وترك فسحة للنجاة، سنكون مجبورين على التعاون والتلاحم مع أبعاضنا لنتجاوز هاته المحنة، محنة الحياة وعلتها، ولنتفق فالبلد غير مؤهل

لمواجهة حرب مثل حرب مرضية قد تلم به، أو فاجعة قد تصيبه، كلنا نعلم السبب في ذلك، وبها تمنى كل واحد منا الهجرة إلى الخارج، لعدم ارتضائه وضع الدولة البئيس، نرى أنفسنا مسوقين نحو أمور لا محمدة فيها، فالبلية حتما ستزول وستنتهي، ونهايتها الذهاب إلى عالم لا حقد فيه ولا حسد، لن تكون المصائب والمعاناة حاجزا مانعا لخلق حياة سعيدة، لنعش حياتنا المعهودة، لنتعاطف ونتسامح، لنجعل العالم عائلة واحدة، سننتصر على مطباتنا بتربية جيل حقيق بالولادة على أخلاق إنسانية، لنشعر بالهدوء والسكينة، ولنتحرر من الخوف، وإذا أصبنا بالوباء في بلدنا أو مرضنا في بلدنا، وقادنا الأمر بالذهاب إلى مستشفى نعلم حاله ومصيبته، فسنحمد الله على مرضنا دون البقاء في مرتع حشرات عفوا في مستشفى بلدنا الحبيب.

إن أوفى المنازل إلى أولئك الناس الذين لم يأخذوا بالفضائل والقيم، القبر، هو القادر على الحد من حقارتهم، ومن نشر مفاسدهم التي يدعو إليها الإله الجديد، وأدل ما أستحضره قول أبي العلاء المعري:

ونعوذ بالأخلاق من أمم أوفى المنازل منهم القبر

انتهت محطة النصر، تحصيلها حصولنا على شهادة الماستر، والاقتراب أكثر من الحزن، والابتئاس من الواقع. في النصر سأتذكر ندى، وسأحيها بشغف، سأشتاق لسعيد، وسيظل في ذاكراتي وسأحافظ على حزني، سأنقذ أسرتي، سأعيش بدعاء أمي وسند أبي، سأصير يوما ما أريد، وسأعشق الأحزان؛ لأنها السند في وحدتي، لا تلموني على كثرة التشاؤم؛ لأنني صارحتكم بما يفتيه عليكم خاطركم من مزق الواقع وشؤمه...

رواية الإله الجديد، زاوية سيد الناس، السبت 28 يوليوز2021م

الفهرس

إهداء 3
تقديم: 5
موت الإنسانية..... 9
ما بعد الإجازة 23
أيام..... 27
الجفاء الإنساني 31
العدو الداخلي..... 42
انعطافة جديدة ومسار جديد 47
الصرخة..... 52
مأساة الجامعة..... 56
التسلط 70
المنزع التقديسي..... 77
الأدب ينتحر بتكاثره المجنون..... 92
شوق ولوعة 107
ندوة المجاملات 132
المتعة المزيفة 145

مسار 147
لا أحب الوداع 149
حيوان أنفوميديا: "إعلامي سياسي" 154
فاجعة الولادة 157